انعطاف النهر

رواية

عبد الفتاح مرسى

رئيس اتحاد الكتاب
أ. فاروق خورشيد

مقر لجنة النشر
أ. أحمد الشيخ

تصميم الغلاف والإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

□ زملاء الشركة.. لا تؤاخذونى..
«فى الثلاثين سنة الماضية
كنت أود أن أكتب عنكم..
لكن كما لا تعلمون «القراء يهتمون
بأن تكون الشخصيات من الطبقة
العليا أو الوسطى..!»
وحياتكم «القرديحى» فى الطبقة
الدنيا بائسة، ولا تعنى الكثير
من الكتاب أو القراء «السوبر»
كما أنكم.. لا تقرأون ما يكتب عنكم
وقد تم إسقاطكم من الحسبة الثقافية
وحالات نادرة منكم..
كسرت القاعدة.. صدفة..
فكانت جديرة بالتناول..

عبدالفتاح مرسى

الأستاذ عبد الصمد..
فيلسوف مِخْلَة!!

.. الفترة الأخيرة من حياتى الوظيفية، أمضيتها مديرا إداريا للمنطقة المركزية لشركة «جوستى». وجوستى، اسم الشهرة لشركتنا التى تعمل فى تجارة الأجهزة المكتبية، والهندسية، والمصنوعات الورقية، والأدوات الكتابية.. والأجهزة الكهربائية - ولديها عدد من المصانع الصغيرة بالقاهرة والإسكندرية.

و«شركتنا» - كما نطلق عليها اختصارا - اجتازت الأطوار التى مرت بها معظم الشركات - المؤممة - فى مصر. إذ بدأت قطاعا خاصا ورأسماليا.. ثم تدخلت فيها الدولة بالتأميم الجزئى والكلى.. ثم رفعت يد الدولة.. فبدأت تشجع القطاع الخاص -

والعربى والأجنبى غير ممنوعان - بشراء هذه الشركات أو أجزاء منها.

وبذلك دخلت (شركتنا) فى الطور التمهيدى المسمى «قطاع الأعمال» بداية لاستقرارها النهائى فى أحضان القطاع الخاص. الذى لا يشترى إلا الشركات المضمونة الربح والفائدة.

ولأن «شركتنا» لا تحقق الأرباح المستهدفة، فلم يقبل على شرائها أحد لذا فقد عرضوا أجزاء منها للبيع، وبثمن الجزء، يتم مكافأة قطاع من العمالة الزائدة.. وتشجيعهم لطلب الخروج إلى «المعاش المبكر» حتى تتخفف الشركة من العمالة الزائدة التى تكدست فيها. عندما استخدمت مع غيرها، فى حل المعضلة الاجتماعية المصرية، لما كانت الدولة مهمومة بتوظيف، وتزويج، ورعاية أطفال الشعب!!!

وفى ذلك يقول الأستاذ عبد الصمد:

«إن الدولة فى ذلك الحين كان ينظر إلى دورها على أساس أنها - أم رءوم - أما والمسألة تبدلت، فقد انقلبت إلى دور - العشيقة المُلعب.. وثمة فرق شاسع بين الدورين، فإحداهما تعطى للعطاء نفسه دون انتظار لقبض الثمن.. والأخرى.. تبيع فيه لحظات المتعة القصيرة بالثمن الباهظ..!»

* * * *

وبحكم عملى كمدير إدارى فى «المنطقة» بالإسكندرية تجمع ما بين ثلاثة مصانع صغيرة مندمجة.. تعمل فى صناعة المصنوعات الورقية والطباعة بالأساليب القديمة والأوفست.. وخمسة فروع بيع تعمل كمنافذ للتوزيع والتجارة.. وعدد العاملين بين موظف وعامل يقل قليلا عن ثلاثمائة وخمسين.. ونظرا لدور النقابة الاجتماعى - الذى لم يعد معارضا لدور الإدارة.. فقد كنت عضوا منتخبا فى اللجنة النقابية ويصر أعضاء «اللجنة» على أن أكون رئيسا للنقابة!!

وذلك فى نظرة موضوعية تستهدف سرعة الوصول إلى مصالحهم الذاتية، وهى نظرة ذكية دون شك، تسهل لهم «طلباتهم» التى فى معظمها.. متواضعة!!

لذا فقد جمعت بين منصبين - فى الأحوال المختلفة قد يكونا متناقضين متضادين - لكن فى الظروف التى يمر بها «تاريخنا».. و«مرحلة الانتقال» - فقد صرت «عمدة الكفر».

وهو تعبير يتناوله العمال فى المصانع وهم لا يتركون أحدا إلا وأطلقوا عليه «اسما».. وكناية لها دلالتها.

وقد صارت «كلمتى» قوية، لا يجرؤ مدير عام المنطقة أو حتى رئيس القطاع.. على معارضتها - إذ كان فى إمكانى أن أثير ضده العمال.. ليقدموا ضده - على الأقل - عددا من الشكاوى، التى إذا لم تصبه.. تدوشه..!

وكان أعضاء اللجنة النقابية، وبعضهم من «الأشقياء» - يدفعوننى دفعا، من حين لآخر - بأن أحجم - مدير عام المنطقة

فى عمل مضاد لرغباته.. لنختبر به مدى قوته، وما تراكم منها، ونكشف عمن يساعده فى الإدارة العامة التى مقرها، القاهرة!.

* * * *

وفى مراحل الانتقال من طور إلى طور، يكون للأنشط، صوتا يعلو على صوت أصحاب المناصب الثابتة، والأطماع الشخصية. وعلى رأى الأستاذ عبد الصمد:

«كل شخص يعلق من عرقوبه»

وإذا استفسرت عن «العرقوب» اتضح لى بأنه يقصد - أمانى الإنسان التى تزيد عن إمكانياته، وأطماعه، والتى يمكن أن يشد منها إلى ما يمكن أن يساق إليه، كما تشد الجاموسة الضخمة الحارنة من خزامها..».

ويقول:

«فى هذه الأحوال، لا يخلو المسرح من وجود عدد كبير من المزيكتية الذين يجلسون فى الفرقة الكبيرة كديكور، قابضين على آلاتهم الموسيقية.. لكنهم لا يعرفون كيف يعزفون عليها..!».

وقد يظن هذا الشخص لكثرة جلوسه فى الفرقة وسماعه للتصفيق، والتهليل، بأنه - صار بالفعل موسيقيا قديرا. وقد يحمل (كارت) يذكر فيه بأنه «موسيقى». ويضع على باب منزله لافتة بأنه «موسيقى». والغريب أن الذى استخدموه يوما كديكور، ينسون مقدار مواهبه - فيكلفونه بتلحين «أوبريت»، وتخصص له الميزانية

الضخمة، والدعاية العظيمة، والميزانية يجب أن تنفق عن آخرها، نظرا لزحف آخر يوم فى السنة المالية، فلا يعدم «المزيكاتى الفالصو» أن يجد «مزيكاتى موهوب» سىء الحظ، وفى حاجة إلى لقمة العيش.. يقبل أن يضع موسيقى الأوبريت. وينجح العمل الفنى. وينسب النجاح للمزيكاتى الواصل، ولن يصدق أحد - ما يدعيه المزيكاتى البائس، بأنه صاحب هذا النجاح. فعندما قبل العمل، قبله من الباطن.. وإذا ما تمادى، سيعاملونه كشخص حاقد على الموهوبين.. أو كمجنون .. حتى يجن بالفعل..!

ويقول الأستاذ عبد الصمد.. الذى يؤسرنى بحكاياته:

«شركتنا.. مليئة بالمزيكاتية الفالصو.. والناس خدعوا فى ضخامةالأوركسترا، وتنوع الآلات الموسيقية، لكن عدد العازفين المهرة كان قليلا بدرجة أن العزف فى النهاية تحول إلى تهريج، وضجة، تصدع الأدمغة والمبانى!».

وفى ذلك.. ينتقل الأستاذ عبد الصمد - إلى الفشل الذى واكب - شركتنا - ويرى أن - لا عيب فى أن تكون «شركتنا» وليست شركة الحاج مرعشلى. العيب فى أن الذين جاء لهم نظام الكفاية والعدل. لم يكن لديهم الولاء الكافى.. كما يكون الولاء - من صاحب المال.. أمام ماله.. يحصيه ويطمئن عليه، ويوظفه فيما لا يخسر إلا بالصدفة!.

والأستاذ عبد الصمد.. يقول أشياء لم أتعلمها فى الكلية، جعلتنى أستقبل - تصفية «شركتنا» بمشاعر غامضة يغلب عليها الحزن الدفين..!

لكن معظم العاملين كانوا يبتهجون وهم يتحدثون عن أخبار مكافآت المعاش المبكر!

ومبعث الابتهاج.. عند أصحاب فلسفة - «إحيينى النهاردة.. وموتنى بكرة..».

كانت فى المكافأة الضخمة، التى تقررت لمعظم من وافقوا على الخروج إلى المعاش المبكر، إذ أنها تتراوح بين «عشرين ألفا» و«خمسة وثلاثين ألفًا» من الجنيهات نعم من الجنيهات!!

والأستاذ عبد الصمد - بصفته المثقف الوحيد - بإدراتى - وربما على مستوى العاملين فى المنطقة - يهتم بقراءة الصحف - والصفحة الثانية، التى تشمل أحداث تجرى فى العالم الخارجى بالذات - ولعله الوحيد الذى يهتم بذلك - ولا يعر صفحة الرياضة اهتماما.. ومن ناحيتى.. لا أدقق إلا فى ناتج العمل.. وأن ينجز ما يكلف به الموظف من أعمال.. والعمل الحقيقى فى قطاع الأعمال، صار ينكمش، لأقل من نصف ساعة يوميا.. فما الداعى للتدقيق على الدقيقة والثانية..

وكان - الأستاذ عبد الصمد - يشيد بذلك أمامى وخلف ظهرى بإدارتى الرشيدة، التى توفق بين منصبين متضادين.. لا يجتمعان إلا فى بلادنا. وأذكر تعليقا للأستاذ عبد الصمد: «إن نجاح أمريكا بجلالة قدرها لم يتأت إلا من حُسن الإدارة، والاستفادة من طاقة العاملين فى الساعات المقررة للعمل بأقصى حد يمكن أن يصلوا فى استنزافه - لذلك فهى تعتبر أغنى دول العالم. برغم أنها أكبر مديون فى العالم.!

وإذا مـا ذكر الأسـتاذ عـبـد الصـمـد «أمـريكا» لابد وأن يذكـر - الاتحـاد السوفيتى - كمـا يحدث فى أجهـزة الإعلام عندنا، حتى لا يظن أحـد بـأنه صـار فى أرذل العـمـر شـيـوعـيـا، يهـاجم أمـريكا.. لصالح الاتحاد السوفيتى المنهار.

يقول الأستاذ عبد الصمد:

«الاتحـاد السوفيتى.. اعتمـد فى تنمـيـة قدراته على قـوة العمل. وليس على قدرة استنزاف المستعمرات، وخامات الشعوب الفقيرة - التى لابد وأن تبقى جاهلة».

ويرى (عبد الصمد) أن عمـال الاتحاد السوفيتى عندمـا تشبهوا بالأمـريكان، ومـارسـوا الهامبـورجـر، والجينز، ومـوسـيـقى الجـاز، فى مظهـرهم الخـادع.. بدأ انهيار - ظهـيـر - الدول الفقـيرة والناميـة.. ليـخطوا العـالم خطوة كبـرى نحـو العـولمة، وعـصـر القطب الـواحـد، الذى لا فوقه أحد لكن يمكن أن يكون تحته الجميع!

ويقول:

«إن انهيـار الاتحـاد السـوفـيتى.. لم يكن بفـعل - الرفيق جـوربا.. وإن كان الرفيق جوربا قد شعر بالانهيـار، فقفز بعيدا، وأشار إليه.. كأنه القشـة التى قصمت ظهـر البـعيـر.. مما يشيـر إلى أن «البـعيـر» كان محملا بالأثقال وينوء بالضعف والوهن.. مسبقا».

«برافو عليك يا أستاذ عبد الصمد..».

ففيمـا يقوله أمـامى من باب التسلية، وقتل الوقت، كان يجعلنى أتأمل كثيـرا من أحوال الدنيـا. وهو الذى لم يحصل على الابتدائيـة

القديمة - التى دائما ما كان يتحدث عنها - على أساس أنه كان فى الطريق إليها، وأعيق فى الصف الثانى أو بداية الثالث.. ومع ذلك فإنه عمل موظفا بالشركة، بدأ بالأعمال الكتابية فى فروع البيع أيام «الخواجات» وتدرج خطوة خطوة، على مدى أربعين عاما.. ويقوم الآن فى إدارتى. بعمل كشف المرتبات للعاملين فى المنطقة، وهو بالنسبة لى أهم العاملين فى إدارتى. يلاحق التغيرات، ويتابع المؤثرات المتوالية فى المرتبات، ويقع على كاهله المتابعة الدورية فى إعداد كشوف الحوافز، والبنص، والساعات الإضافية. التى صارت حقا مكتسبا للبعض، حتى مع ركود الشركة وتوقفها، فى عدد كبير من الأقسام، عن العمل.

وإذا ما ساد الشركة الركود - أخذ العاملون يبحثون عن متأخراتهم، فى دفاترهم القديمة.. ومعدل العمل فى الشئون الإدارية يزداد.. الفاضى يعمل شكوى وينصب نفسه.. نيابة وادعاء!.

ومع ذلك كان الرجل الذى دخل إلى العام الثامن والخمسين فلم تتاح له فرصة المعاش المبكر - كان ينظم وقته، ويؤدى ما يقع على كاهله من أعمال عديدة.. وينهى مشاكل العاملين قبل أن تصل إلى فى صورة «شكوى» وإذا ما فرغ من أعماله - قرأ فى كتاب أو صحيفة.. وأنا إذا ضقت بالوقت الثقيل.. شرع فى مخاطبتى وإثارة خيالى.. بقدرته الفائقة على الحكى، حتى أنى قلت له يوما.. «لماذا لا تستخدم قلمك.. وتنشر ما تقصه على مسامعى.. إنه مفيد وزاخر بالثقافة والخبرة».

يسرح بعيدا.. ثم يقول: «البلد.. بلد شهادات يا ريس».

وكل موضوع.. أعلق عليه - بما قاله لى آنفا.. حتى دون أن أنسبه إليه يقول لى «إنه عين الصواب» ثم يوشيه بالحقائق والمعلومات والأخيلة المذهلة.. وكنت أستمع وأستمتع كثيرا بثقافته، التى نضحت علىّ، واستخدمتها فى تعبيراتى، فاعتقد الكثيرون.. أننى أنا المثقف، الذى نضح على الأستاذ عبد الصمد!.

والعمال الخبثاء لم يتركوه فى حاله - فقد أطلقوا عليه اسم..

«فيلسوف مِخْلَة» كما يشاع بين عسكر الجيش عن الضابط الذى لم يتخرج من الكليات العسكرية.

على أساس أنه يوما حمل المخلة على كتفه.

والأستاذ عبد الصمد. يقابل ذلك بالضحك ويقول:

على الأقل.. «اعترفوا بى كضابط وهذا يكفينى».

ولا أحد من العاملين يريد أن يصدق - أن حامل الصلاحية - يفوق من أمضى ستة أعوام فى كلية الحقوق!.

لكن من جهتى. كنت أنسب الفضل لأهله - ولا أغمطه حقه. وأقرن اسمه دائما بـ «الأستاذ» والجميع يستكثرون على الرجل، ثقافته العميقة وتقديرى له.. ومناداتى له بيا «أستاذ». فيعمد بعض الوقحاء إلى الاصطدام به أحيانا، ومعارضته، بدون أسباب واضحة، فقط - «ليردحوا » له - ويجعلوه لا ينسى «من هو»، «إنك حتة موظف بالصلاحية يا عبده، لا تحمل مؤهلا يا عبده، وأمثالك.

عُمال أمام الماكينات يا عبده.. فلا تتمادى وتتمسح بالكبار يا عبده..».

والرجل واسع الصدر يتحمل، ولكنهم إذا ما لجأوا إلىّ. أشدت به. ولم أكن أخجل فى أن أسأله المشورة فى البنود والقوانين التى يحفظها عن ظهر قلب، أستشيره وأجعل رأيه الأعلى.. وأنتهز الفرصة وأكيل له المديح!.

* * * *

فى الواقع - كنت المستفيد الأعظم من قدرات الأستاذ عبد الصمد، ونشاطه المضاعف، الذى يحاول أن يثبت به، أنه «الأفضل» من حملة المؤهلات العليا الذين اتخذوا من راتب الشركة.. معاشا مبكرا - قبل التفكير فى هذا الأمر منذ زمن بعيد.

والمعاش المبكر.. كان إغراء شديدا.. لمن عاشوا على الكفاف.. وخاصة المكافأة.. التى صرفت بألوف الجنيهات. فأثارت فى البحيرة الراكدة.. كثيرا من الدوائر والتداعيات..

وكانت جديرة - والأستاذ عبد الصمد يشير إلى بعض الحكايات، بإثارة الذهن والخيال. وتحفيزى.. بأن أسجل.. بعضها.. والفضل يرجع إلى فيلسوف المخلة..!.

والذى كان هو ذاته «حكاية جديرة بالتأمل».

البهلى..
المقطوع من شجرة..!

منذ أن اخترع جوتنبرج الألمانى.. آلة الطباعة فى العصور الوسطى.. والتطور يتوالى على هذه الآلة طبقا للتطورات التى اكتنفت العصور الحديثة فى مجال الطباعة..

.. لكن آلة جوتنبرج البسيطة ظلت تحتفظ لنفسها بمكانتها الفاعلة فى حالة الاحتياج لعدد محدود من «النسخ» لتوزيع القرارات والتعليمات فى الإدارات الحكومية وغيرها.. لذا كان الانتقال من طباعة «البالوظة» إلى طباعة الاستنسل.. يتم على نفس آلة جوتنبرج. لكن مع ظهور ورق الحرير الإستنسل الذى يثقب سطحه الشمعى بالآلة الكاتبة، أو المسمار الحديد.. ويطبع على

الورق الخشن «يتشرب الحبر» للوفاء باحتياجات أسئلة الامتحانات.. والقرارات والتعليمات.. العاجلة وغيرها.. تخصصت مصانع، وموردين فى تصنيع وتوريد ورق الحرير الإستنسل.

ولكن مع ظهور طباعة الماستر.. وآلة التصوير، بالليزر، والحبر البودرة.. بدأت مشكلة - زميلنا عبد العظيم محمد البهلى..!

وكأن التطور، لابد وأن يكون له ضحاياه.. من العمال.. بجانب ضحاياه من أصحاب الصناعة، والعاملين فى المجال الذى ستدوسه - آلة التصوير الضوئى.

ومن المعروف.. أن من يدفع الثمن غاليا - هؤلاء الذين لا يتطلعون إلى بعيد.. ويدركون نهاية طريقهم الذى يسيرون فيه قبل أن يضلوا ويتعذر عليهم العودة.!

فإن ظهور تطور ما.. لا يتم بصورة مفاجئة.. إنه يشبه تداخل المراحل الزمنية. مرحلة تبدأ ومرحلة تنتهى، فى تداخل انتقالى، يستمر حقبة زمنية انتقالية يتآلف فيها الجديد مع القديم.. حتى يستقل بزمنه!

وفى تلك الحالة فإن تراجع طريقة ما فى الطباعة، لن تفقد فاعليتها فى يوم وليلة.. إذ أن الزمن سيمتد لمن يدركونه..

بين انتشار آلة التصوير الضوئى.. واختفاء ورق الحرير - الإستنسل..

وفى هذا الزمن البينى.. حدثت مأساة - زميلنا الطيب..

صاحب اليد النظيفة.. والذى لا يكف عن حمل هموم شركات القطاع العام.. وكل ما هو عام.. على أساس أن ذلك يمثل ظهيرا لفقراء المجتمع.. يحفظ لهم كرامتهم وآدميتهم. أمام الكاسحة الرأسمالية، التى قد يقودها فرد واحد ليس له قلب حنون.

زميلنا الأعزب الذى تجاوز الأربعين.. صاحب العين النافذة. والآراء التى يصرح بها وكأنه زعيم رابطة، أو رئيس لجنة نقابية، أو مسنود من وزير.. أو صديق شخصى لمأمور القسم التابع له المصنع «وهو فى الواقع لا شىء من كل هذا».

مما أزعج – الذين على رأسهم البطحة – فحبسوه بعيدا – فى مخزن الأدوات الكتابية، قبلى ترعة المحمودية.. والذى يريد أن يصل إليه، لابد وأن يعبر – الترعة بالمعدية – أو يبحث لنفسه عن أحد الكبارى التى تربط بحرى الترعة بقبليها..

وبقى الرجل هناك فى مخزنه النائى منسيا.. والذى بعيد عن العين.. بعيد عن القلب.. فأمضى وقته فى القراءة الرشيدة.. والاستماع للراديو الفليبس أبو حجارة. وعلمت أنه يكتب بعض التعليقات على الأحداث العامة، ويرسلها لأبواب خصصت لمشاكل وآراء القراء فى الصحف السيارة.. فصار أحد مشاهير القراء.. فى الأهرام..!

عبد العظيم البهلى والذى شاءت له الأقدار أن يعمل أمينا لمخازن الأدوات الكتابية.. فى تلك الفترة الحرجة، التى سيتراجع فيها ورق الحرير الإستنسل، والتى تعتمد عليه – «التربية والتعليم»

فتشترى منه كميات كبيرة.. وذلك أمام انتشار - طباعة الماستر من ناحية - والطباعة على آلة التصوير الضوئى.. والبودرة من ناحية أخرى - مما أدخل تجارة الإستنسل فى مأزق النهاية.

فى هذه الحالة - التى لاحظها «البهلى» وهو فى حالة التأمل والاعتكاف الجبرى بالمخازن النائية، رأى أنه - كان يجب على السادة المسئولين الكبار فى الشركة شبه الحكومية، أن يهتموا بما يحدث حولهم من تطورات.. وأن يلاحقوا ما تتأتى به الأيام..!

وبدلا من أن يملأوا مخازنه المصنوعة أسقفها من الصاج المضلع، وفى الصيف تبخ نارا - بآلاف من علب ورق الحرير الإستنسل - كان الأجدر بهم أن يوافونه برزم ورق التصوير المطلوبة.. أما أن يحدث العكس.

وكلما كف الطلب على ورق الحرير الإستنسل ٠ وافوه بحمولة سيارة أخرى، فقد أثاره هذا ففكر أن يكتب ما يفكر فيه إلى باب «القراء» بجريدة الأهرام.. وأن يزيّل المقال باسم وهمى.. وعندما قلب المسألة فى ذهنه وجد أن مديرين الشركة الكبار - ليس لهم خيال تجارى.. وفكر أن يجعل من الموضوع.. مقال عن «الخيال التجارى».. ولكنه إذا تكلم عما يكدسون به مخزنه من علب الإستنسل - التى تكاد تتوقف طريقتها فى الطباعة، أمام زحف وانتشار آلة التصوير.. فلابد وأن يتعرض لما يحدث فى شركته، وفى هذه الحالة - كما اعتاد - لابد وأن يفكر فى مدى الأضرار التى ستلحق به - وبحصرها - وجد أن ثمة ضرر حقيقى يمكن أن

يستغلونه ضده.. وهو أن الحرارة التى يبخها السقف الصاج للمخزن.. قد يتلف الشمع الرقيق الذى يصنع منه حرير الإستنسل وتصور أن ثمة (عقل) مدبر وراء - عمليات التخزين المتوالية فى مخزنه - وكأن ذلك العقل - يرى أن عدم الطلب على الإستنسل سيكشف ما تم فى لجان الشراء، وتعاقداتها الأخيرة. التى كان يجب أن تراعى ركود هذا الصنف فى السنوات الأخيرة، فدفعوا به للتلف فى مخزنه!.

وإذا ما تلفت البضاعة، حولوا ثمنها، دينا شخصيا عليه - يسددون به خانات الميزانية.. وهذا ما سيسفر عنه التحقيق والمساءلة - التى ستنتهى حتما إلى تقديم اتهام له. بسوء التخزين.. ثم ينفض المحقق يده - ويرتاح ضميره وهو - يقدم حيثيات الجزاء ويبادل الكبار تلك النظرات المحملة! لكن عبد العظيم البهلى. وإن حرم من المؤهلات العليا والمتوسطة، حصل على شهادة زراعية تساوى الإعدادية فهو من الذكاء أن يقرأ ويكتب ويفهم - كان عليه أن يغطى نفسه.. بمذكرة. ويرسل بنسخها إلى جهات مختلفة..

حتى إذا أنكرتها جهة عند اللزوم.. وجد صورة منها فى جهة أخرى..

والمذكرة التى سيستخدمها كغطاء - لينام تحتها قرير العين - سيبين فيها بالتكرار - أن شراء الإستنسل بهذه الكميات الكبيرة.. خطأ. وأن البضاعة ستبقى سنوات فى مخزنه - وستتعرض للتلف. وأنه يخلى مسئوليته من سوء التخزين. لأن المخزن الذى يديره.. لا

يصلح لتخزين المواد الشمعية، والمواد القابلة للاشتعال.. ويبين حالة المخزن الفعلية!.

كتب المذكرة بخط نسخ متأنق.

وأرسل من - المذكرة - نسخا عديدة.. إلى رؤساء القطاعات ورئيس الشركة - وكل من سمع بأنه «عضو» مجلس إدارة حتى المنتخبون منهم.. ثم أرسل بصورة منها إلى رئيس اللجنة النقابية - الذى مقره القاهرة - ورئيس اللجنة النقابية الذى مقره الإسكندرية.. ليساندوه وقت اللزوم..

وعبد العظيم البهلى.. برغم كل ما يحيط به - من اهتمام بالسياسة العامة. والقطاع العام.. وأى عموميات.. فإنه نتيجة الإحباطات المتوالية فى حياته. وفشله فى أن يجد زميلة (نص نص) بالشركة تتزوج منه - وتكون الأقرب لمعرفة ظروفه، وأحواله المالية.

فقد فشل أيضا فى أن يعثر على هذه الزوجة بين جيران شارع العقصة بالظاهرية، مع أنه كان يشيع بأنه - يسكن فى شقة «محندقة» بحارة بطاطا المسدودة والتى تعتبر «حوش» طراوته ترد الروح فى الصيف المكثف بالرطوبة..!

عبد العظيم البهلى.. عندما أرسل - مذكرته - إلى الجهات المختلفة. كان يقصد أن ينجو بنفسه مما قد تأتى به الأيام من مفاجآت. ولم يقصد «بتاتا» أن - ينكش - فى موضوع من موضوعات الإدارة العليا والممتازة - هؤلاء الكبار - الذى يرى فى واقع الحال - بأنه ليس قدهم وفى إمكانهم دهسه!.

كمـا أنه لم يشـر صـراحـة باتهـام إلى رئيس القطاع التـجـارى وعصابته.

ولم يقل أنهم المستـفيـدون مـن توريد الإستنسل فى تواطؤ واضح وصـريح مع أحـد الموردين.. يتـخلص من ورق الإستـتسل - بخـصم كبير - لأجل أن يتحول لتجارة آلات وورق التصوير..

عبـد العظيم البهلى - فى واقع الحـال - لم يكن يملك شـجـاعـة مـواجـهـة «عـصـابة». مـعظم أفـرادها أصـحـاب نفـوذ فى الشـركـة.. وأصغر عضو فيها.. يركب المرسيدس التى يفتح ويغلق زجاج أبوابها أوتوماتيكيا..

كـمـا أنـه - لم يذكـر بتـاتـا - شـيـئـا عن العـمـولات التى يتناولهـا البـعض من «تحت التـرابيـزة» وهو تعـبـيـر مـخـفـف. ينصب على الموظف الكبير الذى يتواطأ مع الموردين الكبار، ويلتقى عادة معهم فى المقاهى الكبرى، والكازينوهات الكبرى؛ حيث تكون ثمة ترابيـزة تفصل بين «المنتفعين» واكتفى زميلنا عبد العظيم البهلى.. بمذكرته المخـتـصـرة والتى.. اسـتـغلهـا - السـيـد رئيس مـجلس الإدارة.. شخصيا.. ضد رئيس القطاع التجارى.. شخصيا..

ولم يدرك أمـين المخـازن الذى يدافع عن نفسـه، شيئـا عن تلك التفاعلات والعداوات الفوقية.. والحسـابات التى أثارتها مذكرته القصيرة بين الرؤساء الكبار. وهم يتربصون لبعضهم البعض..

رئيس مـجلس الإدارة.. يلح على رئيس المؤسـسـة بأن يمـد له.. عـام.. بعد السن القانونى.. ورئيس القطاع التجـارى.. يستخدم من يساندونه.. فى إنهاء خدمته وأن يحل محله.. رئيسا للشركة.

هنا عمد رئيس مجلس الإدارة.. على التلويح لرئيس القطاع التجارى. بالإشاعات التى تدور حول.. كثير من المخالفات. واستخدم مذكرة (عبد العظيم البهلى) استخدامات عديدة.. وفتح النار على رئيس القطاع ومن يساندونه.

وصار الصراع واضحا.. بين فريق.. وفريق..

وفيه يتردد اسم - عبد العظيم البهلى - على أساس أنه الحصان الأسود الذى يمتطيه - رجال الحق، وأنصار الضمير اليقظ.!

وحاول الفريق الذى به رئيس الشركة.. أن ينهى الصراع بالقاضية.. ليخرج فريق.. رئيس القطاع التجارى.. من الحلبة نهائيا، وانكمش الفريق الذى فيه - رئيس القطاع التجارى.. مدافعا.

والضجة تحدث بعيدا عن عبد العظيم البهلى - الذى يستقر آمنا فى الدرجة الثانية الفنية المساعدة فى مخزنه قبلى ترعة المحمودية.. كيف يعلم بما يحدث هناك.. بعيدا.. فى الدرجات الممتازة.. والمسافة أكثر من مائتى كيلومتر.. الأحداث خلالها يصيبها التلون والبلى. ومع ذلك. كان يتمنى - بعد أن ذاع اسمه - أن ينتصر الفريق الذى يمتطى مذكرته..!

ولعل بعض الآمال.. أنعشت مطامحه.. فى أن ينتقل إلى عمل آخر.. بعيدا عن هذه المخازن النائية، وينهى حبسة المؤبد التى هو فيها.. قرد قاطع مع عدد من الخفراء - المتأثرين جدا.. بتربية

التجنيد - بالأمن المركزى - كخفراء بعد أن كانوا فلاحين أجراء..!

والشىء الذى أدهش عبد العظيم البهلى بدرجة الذهول وافتقاد الوعى بضع ساعات.. أن الفريق الذى - رفع لافتة رجال الحق والضمير اليقظ.. سريعا ما انهار أمام فريق رئيس القطاع التجارى.!

عندما أصر رئيس المؤسسة على أن تسلم الراية - لعناصر شابة - ليحدث التطوير بالشركة، ولم يوافق على مدّ - العام اليتيم لرئيس مجلس الإدارة - بعد «المعاش القانونى» متعللا بأن.. الكفاءات.. موجودة بالشركة - والحمد لله - ويمكن أن تحل محله..!

وصار رئيس القطاع التجارى.. رئيسا للشركة.. فى القاهرة، وامتلأ عبد العظيم البهلى. بالرعب.. فى النزهة بالإسكندرية.

وسريعا ما هدأت ضجة الإستتسل - ولكن التغييرات والتبديلات لم تهدأ فى الشركة. تحت مقولة بأن لكل غربال شدة.. ولكل زمن.. رجاله..!

وبات - عبد العظيم البهلى.. يتوقع.. مصيبة.. تسقط على رأسه.. كقالب طوب يسقط من ارتفاع عمارة تحت الإنشاء على أم رأس شخص فينتقل الإنسان من حال إلى حال.. كل ما كان يرجوه أن لا يفضى به الحال.. إلى السجن.. والموت صار نعمة يتمناها..!!

* * * *

وفى القمة.. كان يشغل رئيس الشركة الجديد.. عدة أمور يريد

أن يفرغ منها أولا.. ومنها آثار - فضيحة الإستنسل الذى تم جمعه وبيعه (لوط) لأحد التجار الذى سيرسل ببضاعته إلى قلب القارة الإفريقية..!

رئيس مجلس الإدارة الجديد. كان يفكر فى «عبد العظيم البهلى» الذى لم يشاهده يوما - وكيف يلقنه درسا لا ينساه.. وفى ظنه أن - عبد العظيم البهلى هذا - سياسى داهية.. يصارعهم عن وعى.. ومن الضرورى غلق هذه الكوة.. إلى الأبد!.

وأحدهم أبلغه بأنه يكتب فى الصحافة وبالذات فى الأهرام.

فزاد ذلك من إصرار رئيس المجلس على مناطحته!

وعبد العظيم البهلى - وهذه حسنة من حسناته.. كان يؤمن بأن من يمشى عدل يحتار عدوه فيه. وهو الممتلئ بالخوف من أشياء كثيرة وصاحب الإحباطات القديمة والجديدة.. كان يفضل - دائما - السير بجانب الجدران.. متساندا على عواميد النور.. فكيف تطوله السيارات التى تمرق فى نهر الشارع.. مهما كان سائقها مغامرا.. ومكلفا به.. ولا ضمير له. لابد وأن يعمل حسابا للرصيف وعواميد النور!

* * * *

فى الجرد السنوى.. نزعوه من أمانة المخزن. ونقلوه إلى المصنع.. بوظيفة «عامل». يكلفونه هناك بالعمل المطلوب منه إذ بالبحث فى ملفه عثروا على شهادة الإعدادية الزراعية.. فكلفوه

بأن يعمل فى تخصصه. يقوم بتحضير رصيف مدخل المصنع بالنجيلة.. والمساحات المتوسطة، بالأشجار والأزهار.. وكتب عبد العظيم البهلى سلسلة شكاوى... تقنن فى عرض حالته فيها، والإشارة إلى ماضيه التليد فى الشركة..

وكيف كانت يده – نظيفة دائما.. وأنه بالدرجة الثانية الفنية التى تساوى رئيس قسم. فكيف يتحول إلى جناينى بين يوم وليلة.. يسقى الزرع بالخرطوم ويفرش الأرض الرملية بالطين ليثبت العشب والشجر؟!

وانهالت عليه العقوبات لإهماله، وعدم استجابته لقرارات الشركة وتنفيذها.!

ونصحوه.. أولاد الحلال. بأن ينفذ العمل المنوط به أولا.. ثم يواصل الشكوى.. والتظلم!

ثم ظهرت مطابقة جرد مخزنه.. آلت كل الزيادات فى أصناف البضاعة حتى المتشابهة منها.. إلى الشركة.. وكل النواقص.. التى تقابلها خصموها من مرتبه.. بعد تحقيق سريع.. طلب فيه أن يعامل بنظام المقاصة.. المتبع قديما.

فقالوا له: فى عهد رئيس مجلس إدارة جديد.. سيقضى على التلاعب فى البضائع.. ويتمسك بأن يلتزم كل مستلم أو مُسلم بأن يستلم ويسلم الصنف المشار إليه فى الفواتير..!

لكن – عبد العظيم البهلى – لا يستسلم بسهولة. وكل شىء فى الشركة له قولان.. إلا ما يخصه هو.. فهو قول واحد.. جامد كحجر الصوان..!

وبينما هو يدور شاكيا وثائرا.. بين الإدارات، قابلته بالصدفة «نادية يوسف» التى هى آنسة وتجاوزت العام الثلاثين بقليل، وتعمل فى مكتب رئيس القطاع التجارى إياه. قبل أن يتبوأ رئاسته للشركة، ويتخلص منها باتهام سخيف بأنها أفشت بعض أسرار مكتبه لرئيس الشركة السابق. ومنها الشكوى التى حملت إليه فضيحة الإستنسل المخزن بمخازن الإسكندرية النائية. عاقبوها، بأن ألقوا بها «كاتبة» فى وحدة الصنف، على سجل بضائع يربطها فى مقعدها.. طوال يوم العمل..!

وإذا ما تعرفت نادية يوسف – على عبد العظيم البهلى اندهشت أنه نحيف.. ولا يهتم بمظهره.. وكانت تعتقد أنه عملاق. أطول من مترين وربع.. فإن الذى يتصارع مع رئيس القطاع التجارى – الظالم – لابد وأن يكون.. من جنون الأرض.. وضحكت نادية إذ وجدته عابسا فتضاعف جمالها.. وطلبت له حمص الشام الحراق من البوفيه، وجلست تواسيه وتواسى نفسها – ولما بدأ يفك عبسته. ويتأمل السيدة التى تجالسه والتى تربت على ساعده وتشجعه بأن يشرب كوب حمص الشام، ولا يحرق خلاياه فى التفكير الحزين.. اندهش.. وأخذ يتأمل جمالها الهادئ وقال لها: يعنى أنا كنت السبب فى..

قالت له: أبدا.. كل شىء نصيب.. وأنا فى الحقيقة كنت شايفة الرشاوى عينى عينك لكنى كنت سكرتيرة..

وشوكة رئيس القطاع التجارى كانت مسنونة وجارحة.!

وكلاهما يشكو من الظلم الذى شاهده والذى تعرض له.. تقاريا.. نادية يوسف.. قاهرية من شبرا.. فى الثانية والثلاثين.. خطبت مرة.. ولكنها لم تتزوج. وعبد العظيم البهلى. إسكندرانى من باكوس.. فى الأربعين. يحلم بالزواج.. والاستقرار.. ولكن كيف يصل إليها وهو مضطهد من رئيس الشركة وعصابته، ولم يكفوا عن اضطهاده حتى ينقطع عن عمله ويفصلوه.. أو يستقيل ويبحث عن عمل فى مكان آخر ويترك لهم الجمل بما حمل.

لكن أين الأعمال الأخرى.. والبطالة تتفاقم.. وحملة المؤهلات العليا.. يقبلون الأعمال الهامشية، بل يمتهنون أحيانا.. أعمال النظافة والجرسونات!

واتفقا على أن يوحدا جهودهما.. لكشف ألاعيب رئيس القطاع التجارى السابق. الذى صار رئيسا للشركة. بأن يرسلا بالأسرار التى يحصلان عليها إلى الوزراء.. وأعضاء مجلس الشعب والشورى.. ورقابة الأموال العامة. ورئاسة الجمهورية، وأى مكان يستدلون عليه. وأن يحاربا معركتهما.. معا.. متضامنين. مهما كانت النتائج..!

* * * *

واحتاج عملهما (السرى) إلى كثير من اللقاءات التى يجب أن تكتنفها السرية الشديدة.. ولكن إذا كشفت هذه اللقاءات. يمكن الادعاء بأنهما مخطوبان لبعضهما، وسألها عبد العظيم البهلى:

– يا مودموزيل نادية.. أنت الآن تعرفى كل شىء عنى وأنا أعرف كل شىء عنك.. فلماذا الادعاء.. عملنا الموحد يتطلب اللقاءات المستمرة.. وحتى يتم بصورة طبيعية.. أعرض عليك الخطوبة الرسمية. لكن نادية يوسف لم تكن من النوع المغامر والذى يمكن أن تجتاز سورا عاليا فى قفزة زانة لا تثق فى قدراتها..!

ابتسمت فى وجهه.. وطلبت منه ألا يتسرع.. فليكونا رفقاء نضال.. وإذا شاءت الأقدار لهما الزواج.. فهى لن تمانع.. ولكن ذلك.. كما نصحته يتطلب ترتيبا خاصا..

وانعقدت لقاءات العمل.. بين شبرا.. وباكوس.

عندما ينزل القاهرة.. ينام فى لوكاندة.. ليلتقى بها فى المقاهى وعلى كورنيش النيل.

وعندما – تأتى لزيارة خالتها مادلين فى الإبراهيمية، كانت تقابله فى ميامى.. وسيدى جابر.. ومحطة الرمل والقهوة التجارية..

هو يدبج العرائض مستخدما فيضا من التصاوير الأدبية وهى تكتب العرائض.. على الآلة الكاتبة التى تملكها فى منزلها.. ثم يضعان الشكاوى فى أظرف ويرسلانها إلى الجهات المختلفة..

مشيرين إلى عدد من الصفقات المشبوهة، وإلى عدد من أفراد العصابة وثرواتهم التى تضخمت بصورة مبالغ فيها.. ومرفقين مستندات تناقض مستندات. ومظهرين عمولات لبضائع تم شراؤها - وبيعها لوطات بخسائر فادحة.. وإشارات يوجهونها إلى بضاعة ليس لها علامات تجارية تدخل إلى مصر عن طريق سيناء. وأكداس منها فى الفروع.. لا يجرؤ رؤساء الفروع على بيعها وإلا تعرضوا لمخالفات تموينية.

ومن خلال النضال.. والأيام والليالى اللذان يتقابلان فيها.. صار (عبد العظيم) يشعر بارتياح نفسى شديد وهو مع نادية. وصارت نادية تثق جدا فى عبد العظيم وتوسع له مكانا فى قلبها..

وصارت نادية لا تكف عن الاتصال الدائم بعبد العظيم - تليفونيا - إذا لم يتيسر لها اللقاء به.. والغطاء دائما - ذلك النضال المتواصل، ضد رئيس الشركة، وأعوانه.

وقد أسبغا عليه وعلى أعوانه أسماء الحيوانات «كالحوت.. والثعبان.. والضبع.. والثعلب»..

ومع أن الشكاوى التى كانت ترسل.. لم يسمعا بأن واحدة منها.. أحدثت صدى.. وكأنهما يلقيان بالشكاوى فى البحر فيزيل الماء المالح كلماتها..

فإن عبد العظيم.. لم يعد يشعر بأنه مقهور.. وحتى يبعد عن نفسه الشبهة صار يزرع الشجر والخضرة والأزهار.. وصار متعلقا بنادية يوسف زميلة النضال، وصار يطلق على وردة.. لها رقتها..

«وردة نادية».

. وكان إذا ما علم بحضورها إلى الإسكندرية.. يقطف لها صحبة ورد نادية.. ويضع الورد فى صندوق كرتون، واجهته من السلوفان ويقدم لها الورد قائلا:

- أنا الذى زرعته من أجلك يا نادية.. منذ كان عقلة وبذور.. رعيته وأزهرته.. لأقدمه لك..

ونادية إذ اكتشفت رقته وعاطفته نحوها.. تنفعل.. وتبكى..

يربت على ظهرها. ويجعل يدها بين يديه - فى الوقت الذى تمنى أن يتجرأ ويقبلها، ولكنه لم يكن أمام ذوب قلبه، يملك تلك الجرأة الوقحة!

يقول لها: هل تجاوزت الحدود؟

تقول له: مطلقا.. أنت مؤدب جدا!

يقول لها: أرغب بشدة.. فى الزواج منك..!

ثم يستدرك ويقول:

- هى ليست رغبة طارئة.. إنها إرادتى وأملى.

تمسح نادية دموعها وتبتسم.. وتجعل من الابتسامة حنوا يخفف إجابة سؤالها: لكن أنا..

يسارع ويقول: أنا أحبك جدا.

تضغط على يده وتقول: أنا.. ممنونة..

وتقترب من صدره.. فيحتويها دون شعور منه ولكنها.. الحريصة دائما تتلفت حولها - وكأنها استيقظت من إغفاءة وتريد تحديد موقعها..!

ومع العودة للحديث فى النضال السرى.. يختارا المكان الخالى. المتوارى عن الأنظار. وماء البحر.. يمتد أمامها، عميقا.. وحد الأفق يضيع فى ظلام الغروب.. تشير إلى بعيد وتقول:

- هناك.. هناك.. بلاد جميلة.. ولعلها قاسية. ولكنها قد تحتوينا..

يقبلها فتستجيب فى تحفظ..

وماء البحر يضرب فى أعمدة الكازينو القديمة..

أعلنت الشركة المعاش المبكر..

حصل عبد العظيم البهلى على مكافأة. ثلاثين ألف جنيه.. وحصلت نادية يوسف على ستة وعشرين ألف جنيه. وباعا ممتلكاتهما.. شقتها الموروثة فى شبرا.. وتخلى هو عن شقته المستأجرة فى باكوس..

والمبلغ صار فى حدود المائة ألف جنيه.

أودعوه بنكا استثماريا.. يعبر البحار..!

وسافرا إلى الخارج..

قال أحد المقربين من عبد العظيم البهلى «أنه سافر إلى أمريكا - بستانيا».

وأسر الأستاذ عبد الصمد - لى بصفة خاصة:

- الحقيقة.. أنهما سافرا إلى أستراليا هجرة نهائية..

نادية لها قريبة هناك حصلت على الجنسية الاسترالية..

ذلك سهل لهما الصعوبات.. والبهلى.. كما تعرف «مقطوع من شجرة»..!

مهدى الإنجليزى..
وأمنية العمر

مهدى حسين عبد الوهاب.. الذى أطلق عليه عمال المصنع لقب «الإنجليزى».. وحتى قبل أن يوافق «الريجستير» بأن يشركه مع صديق له يعمل مع الكومبارس - كعسكرى إنجليزى فى فيلم يصوره يوسف شاهين بالإسكندرية - ويوسف شاهين ذات نفسه، لما رآه ضمن الكومبارس التفت إلى مساعده وقال له:

- هل استوردتوا الكومبارس من إنجلترا؟

وانعقد لسان مهدى وغاص قلبه فى قدمه.. وكان نفسه ومنى عينه، يكلم يوسف شاهين الذى كان لا يزال يراه (قناوى بائع الصحف..) ولكن الذين يحيطون بالمخرج منعوه بوسائلهم التى لا تجرح..

مهدى الإنجليزى - العامل فى «شركتنا» كان يطوى بين جوانحه أمنية عزيزة عليه - يتمنى أن ينفذها إذا أقبلت عليه الدنيا، ولو لمرة واحدة فى حياته المديدة الشقية.

يود لو ينفذ أمنيته الغالية التى سيحقق بها ذاته.. ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث وإذا سأله صديق من أصدقائه القلائل.

ما هى هذه الأمنية يا إنجليزى؟

وجهه المستطيل المنمش - لبياضه الشديد وانقلابه فى ساعات الحر والصيف إلى لون الجزر الأفرنجى، والضب البارز من الفم الضيق ذى الشفاه القانية.. ممدود كمن يريد التقبيل.. كل شىء فيه يرتخى فى تسهيمة طويلة ولا يصرح بشىء، وبطبعه الهادئ يتعمد (مهدى) أن يترك المسألة لتخمينات، لا تصل إلى قرار نهائى..

وحتى إذا ما سُئل: هل ترغب فى أن تعمل ممثلا فى السينما؟!

كان يشيح بيده - ولا يعتبر ما حدث له مع فيلم يوسف شاهين - إلا صدفة لا يسعى إلى تكرارها.. لتبقى أمنيته مطوية بين جوانحه.

* * * *

مهدى «الإنجليزى» يعمل على بابور الطباعة نصف فرخ وجاير، وعمله محكوم بالعداد.. عليه تسليم مقطوعيته التى لا تقل عن أربعة آلاف فرخ مطبوع. وذلك مقابل الأجر الثابت.

أما ما يزيد عن ذلك.. فيحسب له عنه نسبة إنتاج.

والماكينة التى يعمل عليها قديمة.. عمرها الافتراضى انتهى منذ سنوات بعيدة، قد تتعطل فلا يستطيع الوفاء بالمقطوعية المقررة.. وما يتبع ذلك من عدم تحقيق «الإنتاج» الذى يطلق عليه.. «ثمن الدخان..!» ولا يدخله فى ميزانية بيته وعياله!.

ولعل هناك أسباب أخرى بجانب انشغاله الشديد فى العمل.. تجعل «الإنجليزى» لا يشترك كثيرا فى هزر، ولغط عمال «المصنع» الذى لا يلتقى بهم كثيرا، ولا يبقى طويلا فى تجمعاتهم.. إلا ساعة الحضور.. وهو يختم السرك.. أو ساعة الانصراف وهو يبحث عن السرك الخاص به ليختمه فى الساعة الميقاتية، ويعلقه فى اللوحة.. وسريعا ما يختفى.. وأصدقائه من بين الزملاء قلائل..لا يزيدون عن ثلاثة يسكنون معه فى كرموز - ويرافقهم فى الطريق من وإلى المصنع بالنزهة.

لكن - مهدى الإنجليزى - عند الرؤساء الذين يقيمونه سرا.. كل عام. يعتبر من العمال الجادين. وهو فى الواقع يبدو متجهما و«شايل طاجن سته» على حد تعبير مدير المصنع الأستاذ بلتاجى.. ولعل عمله بالإنتاج والمقطوعية هو الذى جعله دائما مهدود الحيل.. فمنذ زمن بعيد، لم يعد يشارك العمال فى نشاطهم.. وتجمعاتهم.. أو حتى فى هزرهم الثقيل، الذى يستخدمون فيه أذرعهم، وأرجلهم، وعافيتهم المستنزفة..

وبمرور الوقت بدا «الإنجليزى» غير مبال بما حوله - فهو يخرج من - «شركتنا» - ليعمل فى القطاع الخاص.. خاصة بعد أن أصيبت شركتنا التى هى من قطاع الأعمال - بحالة ركود.. وآلاتها، بكثير من الوهن، والأعطاب..

وقام عدد كبير من العمال.. بالالتحاق بأعمال إضافية وانفتاحية يعملون فيها بالساعة.. أما يوم المصنع.. فينامون فيه - أو يجلسون فى أماكنهم، وكأنهم فى سبات عميق.. وأمثال - الإنجليزى - الذين يأخذون العمل بجدية، شكلا، وموضوعا.. كان مطلوبا من مصانع القطاع الخاص. التى تعمل فى نفس المجال.. وخاصة وأن هذه «المصانع» لن تلتزم بدفع قسط التأمين الاجتماعى أو الادخار.. فإن ثلاث ساعات عمل.. كافية بأن تأتى له بأجر يماثل الأجر اليومى فى «شركتنا» بل ويزيد.

وإذا ما رغب فى أن يزيد من دخله.. يضاعف ساعات العمل..

وبمرور الوقت، واستمرار حالة الركود فى «شركتنا» عددا كبيرا من العمال صاروا مثل «الإنجليزى» يأتون إلى المصنع للراحة فى الساعات المقررة يوميا.. ثم يعملون لدى الغير بهمة وحماس..

وفى قرارة أنفسهم يتمنون أن تستمر حالة الركود.. ومصائب قوم عند قوم فوائد..!

ومن جهتى، لم أتعرف على - العامل «مهدى عبد الوهاب» واحتك به إلا لماما، مع أننى كنت أجمع بين منصبين خطيرين..

مـديرا للشـئـون الإدارية بمنطقـة الإسكندرية، ورئيس اللجنة النقابية المنتخبة لنفس المنطقة!

وبعض العـمـال الخـبـثـاء فى «شـركـتنا» فى هزرهـم الثـقـيل مسـتهدفـين إثارة «الإنجليـزى» ربطوا بين شكل الإنجليزى وشـعـره الأصـفـر الذى يـميل إلى الاحـمـرار.. وبين وجـود «الإنجليـز» بشكل مكثف حول الميناء.. أيام الاحتلال أو أيام معاهدة ٣٦ التى كانت - أيضا - احتلال..

وأطراف المدينة لم تكن تخلو من البيوت السرية التى خصصت للمتعة بتراخيص رسمية.. و(الإنجليزى) يكفهر ويغضب ويظهر التوتر عليه.. سارعت بالتدخل.. لأذكر لهم بأن زميلهم (مهدى) من مواليد ٤٨ - وهو مولود فى بركة السبع.. بالمنوفية - وليس حول الميناء أو فى الفـراهدة.. وانقلب العـمـال الخـبـثـاء.. ليـثـبـتـوا أن «الإنجليـز» وصلوا إلى دنشـواى ليـصطادوا حـمـام الأبراج.. وسـأله أحدهم:

هل تعتقد يا إنجليزى أن والدك الحقيقى.. كان يدفس نفسه فى الغيطان والقرى من أجل الحمام فقط..؟!

- ولأول مـرة وآخـر مـرة - أشـاهد الإنجليـزى - فى غـضـبـتـه وهو يهجم على مجموعة من العمال الذين يثيرونه، ويريد أن يعاركهم جميعا، ولم أتركهم إلا بعد أن بينت لهم.. أن معظم المماليك كانوا فى شكل مهدي الإنجليزى - والأتراك كذلك.. وغيرهم من الشعوب التى اختلطت بالمصريين كثيرا - وأن مصر تقع فى قلب العالم

القديم.. قدم فى آسيا.. وقدم فى إفريقيا.. وذلك جعلها (ملطشة) لكل من هب ودب!.

وقد حفظها لى - الإنجليزى - ووقف بجانبى فى انتخابات النقابة - التى كانت تأتى برئيس - جاهل - يصنع الفرقعات بالإسكندرية للفت النظر بالقاهرة فى - ديموجيجية - اضطررت للقضاء عليها بأن أجمع بين المنصبين، لوقف التهريج الذى يستغلونه ضد الموظفين الكبار فى الشركة، حتى يمرروا مزايا خاصة جدا للبعض.

وأمثال مهدى الإنجليزى.. كواحد من العمال الذين يعملون فى صمت. ويحل مشاكله المادية فى عمل إضافى خارج الشركة.. ونحن موظفو المناطق النائية الذى لا لنا فى الثور أو الطحين - فلا يحملنا مشاكله، ولا يرهقنا بكتابة المذكرات والشكاوى.. لذا كنت أعتز به!.

وهو إذا ما حضر إلى الشئون الإدارية، لأمر ما.. تكلم فى ارتباك.. ويصر بأن يظل واقفا.. والكرسى أمام مكتبى خاليا.. أدعوه ليجلس فيأبى فأنهى له طلباته اليسيرة، ويترك عندى.. وعند الأستاذ عبد الصمد انطباعا، بأنه (ابن ناس).

وتقرير الحالة الاجتماعية طرفنا - بالملف - يقول أن مهدى متزوج ويعول ثلاثة من الأولاد.. أكبرهم بالمدرسة الإعدادية.. وتاريخ ميلاده يؤكد أن مهدى - تزوج وهو فى الرابعة والثلاثين

ويقيم فى شارع النيل بكرموز.. لكن من يتعامل معه.. يخال بأنه يقيم - منذ مولده - فى الإبراهيمية أو كامب شيزار!.

* * * *

مهدى «الإنجليزى» ضمن الذين رحبوا بفكرة الخروج إلى المعاش المبكر - وترك الخدمة فى المصنع - على أساس أن اليد البطالة نجسة!.

واليوم إذا مر بدون عمل، تتضاعف ساعاته وتطول.. أدرج اسمه فى الكشوف.. فكان من الدفعة الأولى.. التى تسلمت شيك المكافأة.. وأخلى طرفه.. وذهب إلى البنك ومعه كيس بلاستيك عليه ماركة محل لبيع الأحذية - وعبأ بداخله واحدًا وثلاثين ألفًا ومائة وعشرة جنيهات.. وأصر أن يحصل على فلوسه أوراقا فئة الخمسة والعشرة جنيهات.. متحوطا بأن الحوادث التى ذكرت عن تزوير النقود فى الصحف.. كانت تذكر تزوير الخمسين والعشرين.. وأن المزورين يستنكفون تزوير العملة الصغيرة..

وخطر لمهدى «الإنجليزى» أن يدخر خمسة وعشرين ألفًا فى وديعة تدر عليه دخلا شهريا.. يساعده على المعايش بجانب معاشه الشهرى، والعمل الذى قد يصبح - فى حالة خروج الألوف من العمال - غير مضمون فى القطاع الخاص.

وقال له الأستاذ عبد الصمد:

والله «براوة» عليك يا إنجليزى.. لكن المبلغ الذى استبقيته معك.. يزيد عن ستة آلاف.. أليس هذا كثيرا.. على البشرقة!

قال الإنجليزى:

- حاجات كثيرة مراتى وعيالى نفسهم فيها.. (الدش) بألف وخمسمائة وتلفزيون ١٧ بوصة بألف ويزيد - وتصليحات فى شقة المساكن.. ستبتلع ألفان.. وأنا نفسى أحقق..

وسكت.. أو لعلى انشغلت مع طلب عامل آخر فلم أسمع ما قاله، قطع كلامه وراح يهمس فى أذن الأستاذ «عبد الصمد» الذى سبل عينيه.

والأستاذ عبد الصمد يبنى حوارا من الثقة بينه وبين العاملين فى جميع الإدارات.. والمصنع.. وبعض العمال يستكثرون عليه - أنه موظف قاعد على مكتب فى الشئون الإدارية.. ولكنهم إذا احتاجوا شيئا من الشئون الإدارية، لجأوا إليه أولا.. ومنحوه أسرارهم.. وفى ظنهم أنه.. وهو لا يحمل مؤهلات دراسية.. أقرب لأن يكون زميلهم على الماكينات!.

حتى صار الرجل - يُطلب لحضور وفض مشاكل عائلية فى منازلهم.. مسائل عائلية تعقدت، واحتاجت لشخص كبارة له مواهب الأستاذ عبد الصمد وطول باله.. والرجل على وجهه نظارة طبية سميكة، وشاربه مختلط بالشعر الأبيض، ويتكلم بالرقعة مع استخدام ثلاث أو أربع آيات من القرآن الكريم، يصلحون لمناسبات مختلفة.. ولكنه إذا ذكرهم أمام أزهرى فقيه، لن يجد عنده لحنا أو اعوجاجا فى اللغة العربية ونطقها السليم.. مما أضفى على الأستاذ عبد الصمد أمام أهالى العمال.. من البسطاء.. كثيرا من

الاحترام والتقدير، وذكروه دائما بالخير.. والرجل يعرف كيف يبدو محايدا وحقانى.. فى الوقت الذى يُرضى فيه المتنازعان، وهى مقدرة لا تتطلب ثقافة غزيرة.. وإن كان يتمتع بها.. بل تتطلب دراية بعقليات البسطاء وميولهم.. وسريعا ما ينجح فى جلسة واحدة من تحويل الغضب الشديد إلى المحبة الأُسرية..!

لذلك كان الأستاذ عبد الصمد دائما، محاطا برهط من العمال، واعتدت أن أجد أحد العمال يميل على أذن الأستاذ عبد الصمد ويسر له بأسراره.. كما فعل مهدى الإنجليزى.

وسبق وتدخل الأستاذ عبد الصمد فى نزاعات عائلية نشبت بين مهدى الإنجليزى - وحماه.. عندما أمضت زوجته مدة شهر فى بيت أبيها.. وأصر حماه أن يحصل على عشرة جنيهات لكل يوم «ترك فيه مهدى زوجته وأولاده عنده».

وقال للأستاذ عبد الصمد - إن ذلك يؤدبه - ويجعله مستقبلا يختصر المدة أو يلغيها فلا يجعل زوجته تغادر بيتها.

كما يجعله يكف عن الإشارة لها إلى الباب الذى يفوت جمل..

والواقع فى هذه الهمسة السرية.. لم أكن أعلم بأن - مهدى الإنجليزى - كان يدعو الأستاذ عبد الصمد ليشاركه فى تحقيق «الأمنية الدفينة».

أمنية عمره.. فى أن يعيش يوما بليلة.. كما يعيش البكوات، وكما شاهدهم فى الأفلام.. إذا ما أصابهم السعادة - أكلوا فى المطاعم

الكبرى.. وسهروا فى صالة للرقص يسفحون فيها المشروبات الروحية، ويشاهدون الراقصة اللولبية. وهى ترقص عارية على الموسيقى الشرقية..

أمنية عاشت مع مهدى طويلا.. وآن لها أن تتحقق والفلوس صارت فى حوزته..!

* * * *

فى اليوم الثانى قال لى الأستاذ عبد الصمد:

• هل تود أن تعرف فى ماذا طلبنى الإنجليزى؟!

ولم ينتظر أن أجيب. فقد أخذ يضحك من قلبه ويمسح عينيه من الدموع وقد خلع النظارة فبدا شكله غريبا.. وهو الذى لا يفارقنى فى العمل إلا لماما.. استمر يضحك.. والضحك مُعدى.. ولكن ليس بنفس القدر.. فقد ابتسمت وانتظرت متلهفا لما سيقوله.. فقال:

«الإنجليزى» - فاجأنى بأنه يستضيفنى واثنين من أصدقائه العمال. فى مطعم كبير يقع على الكورنيش فى محطة الرمل لا يؤمه إلا القادرون ماديا.. وطلب لنا اللحم المشوى والطواجن بإسراف.. حتى بدأت أشك بأن (مهدى) العاقل قد أصيب بالجنون.. وهو يحتضن الكيس الذى يضم مكافأة المعاش المبكر كاملة!.

وقد استدعى زملاءه كما استدعانى، دون أن يخبرنا عن مقصده - فلم نستعد بما يليق وخاصة العمال - كانوا بملابس لا

تناسب هذا المحل الفخم، الذى يرتدى فيه الخدم والجرسونات.. البيون الأحمر على البذلة الكاملة السوداء من الموهير اللامع.

ورأيت «كبير المستخدمين» الذى يتحرك فى تأوده وتعال وكأنه لورد يتوجس خيفة من شكلنا الذى لم يرتح إليه بداية..

ومهدى يطلب المزيد من الطلبات حتى ازدحمت الترابيزة بما لذ وطاب.. ومن طرف خفى رأيت - «اللورد» يوزع المستخدمين على المنافذ، ولعله كان يخشى أن نأكل ونهرب، ولعل مهدى لاحظ ذلك، فقد قام بحركة جعلت اللورد يبتسم ويرتاح. أخرج من الكيس رزمة نقود، تأملها ثم دسها فيه، وأخرج رزمة أخرى نظر إليها وكأنه يختار بين الرزم.. الرزمة التى التى سيدفع منها ثمن الطعام.. فعل ذلك دون أن ينظر نحو «اللورد» كبير الجرسونات.. فإذا بالحراسة التى على الأبواب تختفى.. ويتقدم اللورد بذات نفسه ليقوم بخدمتنا..

والإنجليزى يشجع صاحبيه العاملين فى أن لا يتوترا وأن يأكلا بشهية ويذكر - بصوت عالٍ - بأنه خصص لهذه الوليمة خمسمائة جنيه..

وقلت له:

- أنت مجنون يا إنجليزى.. كيف تنفق هذا المبلغ الجسيم فى وجبة واحدة.. وهو ما لم تتحصل عليه فى شهر ونصف من العمل الشاق..

قال: أنا أحلم بذلك منذ صباى يا أستاذ عبد الصمد..!

قال ذلك وهو يهز رأسه ويسبل عينيه وكأنه يخاطب معشوقته.

- حلم حياتى أن أجلس هذه الجلسة. وعدد من - الأفندية - يخدمون علىّ وأدفع للمحل.. ولهم، فينحنون لى احتراما.

الإنجليزى لم يأكل كثيرا.. كان يتذوق ما يقدم له.. وأنا والعاملان أكلنا حتى اتخمنا.. وكان يطلب منا أن لا نتعجل فهو يشعر بحالة استمتاع قصوى.. هو الذى وصل إلى أن يحقق ما كان يحلم به.. وتباطأنا.. حتى عاد كبير المستخدمين إلى الارتياب فينا.. وظهر عدد من الخدم عند الأبواب مرة أخرى، وشمخ اللورد بأنفه مع رسم نصف دائرة مقلوب بشفتيه.

وهنا فرقع له الإنجليزى بأصابعه.. لكن «اللورد» ظل لوردا لا يستجيب للإشارات.. وقد تكيفنا مع أجواء المحل الكريستالية.. والحركة القططية التى لا صوت لها.. فقد أفلتت ضحكات العاملان عالية مما ضايق «اللورد» وكان يتلفت حوله.. خشية أن نسبب إزعاجا لسمعة ورواد المحل.

ولما لم يستجب لفرقعة الإصبعين - قام الإنجليزى بالتصفيق على عادة المقاهى البلدى، فإذا باللورد ينزعج، ويتقدم سريعا إلينا فى عصبية.. كان يظن بأننا سنطلب طعاما آخر.. على عادة من ليس لديهم نقود.. فيجعلون الورطة ورطتان..

قال له الإنجليزى من أنفه:

- الحساب يا متر.

وأشار المتر دوتيل إلى ناحية الخزينة.. وقال:

- الحساب فى الخزينة.

قال له الإنجليزى وهو يدوس على قدمى ولا يلتفت إليه:

- اذهب واحضر الفاتورة..

ولابد وأن «اللورد» كان يخشى أن نفر هاربين من المحل، فقد أصدر عدة إشارات برأسه ويديه وعينيه.. فظهر أربعة من الرجال حول مائدتنا بحجة أنهم يرفعون الأطباق.. ولكنهم كانوا يجمعونها فى بطء على سواعدهم.. واتجه «اللورد» ناحية الخزينة وعاد سريعا بطبق فوقه مفرش تستقر عليه الفاتورة..

فرد ذراعه ووضع الطبق تحت أنف الإنجليزى الذى تجمد لحظات. ثم قام باستخراج رزمة بها مائة ورقة فئة العشرة جنيهات من كيس «محل الأحذية».

وقال بصوت خافت:

- اقرأ الفاتورة يا متر.. وضف عليها عشرين جنيها لك.. لا.. اجعلهم ثلاثين..

أحنى اللورد رأسه، حتى جعل أذنه فى مستوى فم (الإنجليزى) الذى قال:

- وضف أيضا.. خمسين جنيها.. وزعها على العشرة الذين يعملون حولنا.. والذين أوقفت بعضهم على أبواب المطعم حراسا..

فى لحظة، كان اللورد قد تحول إلى (جرسون) يجيد الترحيب بالزبائن. ذكر المبلغ المطلوب والإضافات.. وسحب «الإنجليزى» المبلغ المطلوب من باكو النقود.. وألقاه بداخل الطبق.. فإذا - باللورد - يسحب له مقعده عندما هم بالوقوف ويحنى رأسه أمامه، وهو يرفع الطبق المحمل بالأوراق المالية.

وعندما وجد الإنجليزى.. أذن كبير الخدم.. أمامه وهو منحنى مال وهمس فى أذنه:

- أنا لو منك.. دوغرى أعود إلى بيتى.. أخلع هذه البدلة السوداء التى تشبه بدل الأموات الإيطاليين وأنام فورا فى أحضان زوجتى و....

والرجل المترفع.. كان يبتسم وهو يلهج بكلمات الشكر والممنونية بثلاث لغات أجنبية».

واستغرقت مع الأستاذ عبد الصمد فى (تأمل) حلم مهدى الإنجليزى الذى قام بتحقيقه. ولكن أثناء عودتى إلى بيتى..

كنت أبتسم، وأكاد أنفجر بالضحك وأنا أتذكر ما حدث..

وفجأة تذكرت.. أن الأستاذ عبد الصمد.. لم يحك لى.. القصة كاملة.. فقد جاء فى أمنية «الإنجليزى» - أنه كان يحلم أيضا بالكازينو..

والراقصة اللولبية!.

* * *

تشومبى..

والهروب الكبير!

عامان طويلان والعاملون بالشركة.. حديثهم المهم والأساسى والدائم، صار ينحصر فى (فلوس) مكافآت الخروج على المعاش المبكر..

يحسبونها على الأصابع.. وبالأقلام.. وبالآلات الحاسبة طبقا لجداول شاعت بينهم - استخدمت أعمارهم وسنوات خدمتهم.. وانتهت إلى حد أدنى للمكافأة لا يقل عن سبعة عشر ألف جنيه.. ولا يزيد عن خمسة وثلاثين ألف جنيه لمن سيكون معاشه الشهرى.. قليلا!

ومن يرغب، وقع فى استمارات الطلبات المعدة لهذا الشأن وأرسلت الطلبات من الإسكندرية إلى الإدارة العامة بالقاهرة..

وقد يحدث لبعض الموظفين الذين يدخلون فى (جمعية) سيقبضونها بعد عدة شهور.. أن يبدأوا فى الاقتراض على «حسها».. صار البعض.. ينشن على من يظن بأنه لديه فائضا.. ويطلب منه قرضا.. بالضمانات التى يريدها.. وإذا كان يقبل فوائد ولا يستحرمها.. عليه أن يحددها ويضيفها على «المبلغ» المدين، (شيك) أو (وصل أمانة).. كما يرغب والأستاذ عبد الصمد سألنى:

- هل سمعت بما حدث من مهازل؟

انتبهت إليه - فهو عادة ما يأتى إلى بالجديد.

لابد وأنه فرغ مما يفعله ويريد أن يفتح موضوعا للنقاش حول الأوضاع التى تبدلت سريعا، يدلى فيه بدلوه.. أنه يعرف بأننى أستمتع بحديثه.. أعاد صياغة سؤاله:

- هل سمعت بما حدث لتشومبى؟!

كنت أتطلع إليه مستفسرا..

«تشومبى.. اسم أطلقه العمال فى المصنع - على «خليل أحمد خليل» كما أطلقوا على شقيقه (عيد) الذى يصغره ويعمل فى نفس المصنع «لومومبا» العمال.. كعادتهم فى إطلاق الأسماء.. والتى تقاوم فى البداية ولكنها فى النهاية تحل محل الاسم الحقيقى. ويتعامل بها الشخص.. بل وتنتقل معه إلى أقاربه وأهله خارج الشركة.. وتصير معروفة أكثر من اسمه الحقيقى «خليل» وأخوه

«عيد» من أبناء الجنوب الأسوانيين، سمر البشرة.. ولهم سمات النوبيين وملامحهم.

الشعر أسود ناعم.. والعيون بنية واسعة والأنف دقيق حاد.. لكن شفاه خليل كانت إفريقية جدا.. وحجمه ضئيل وهو الأكبر.. بينما شقيقه عيد يبدو أكبر منه حجما، ووجهه طفولى.. وفيما يبدو كان تعيينهم كصبية فى - المصنع - أثناء أحداث الكونغو.. وكفاح لومومبا واغتياله، وكذلك.. مقتل «همرشولد» سكرتير عام الأمم المتحدة، فى حادث طائرة بأدغال إفريقيا - وظهور - تشومبى الذى حفظ مصالح الاستعمار فى ثروات الكونغو..!

فأطلقوا - على - خليل أبو شلاضيم «تشومبى» وأطلقوا على شقيقه الوديع الوسيم «لومومبا..» والصبيان صارا عاملين فى المصنع بشركتنا.. وتزوجا.. وأنجبا أطفالا وكلاهما كان يتحايل على المعيشة بأسلوبه.. وهما يعملان فى أعمال المناولة.. وأتيحت الفرصة للومومبا أن يصير عاملا على آلة البرنسية، مكبس تقطيع الورق بأشكال معينة. فترقى وكبر راتبه، وحصل على حافز الإنتاج وأجر الساعات الإضافية. فلم يعد أحد يسمع له شكوى.. بعكس شقيقه (تشومبى) الذى لا جهد له على العمل الثابت فكان الأسطوات يتخلصون منه.. وهو لا يسعى للعمل ساعات إضافية بداخل المصنع.. أو فى مصانع القطاع الخاص.. فتجمد راتبه، وصار يظهر أمامى فى الشئون الإدارية ليطلب سلفة المدارس أو

«القـرض الحـسن» الذى يقـتـرضـونه من صندوق الجـزاءات بدون فوائد، ويقسط على أقساط شهرية..

وكان خليل (تشومبى) - يكثر من الاقتراض وطلب (سلفة) من العمال زملائه بضمان شقيقه (لومومبا) ولا يفى بسداد ما عليه، من قروض.. ويسبب للومومبا العديد من الفصول الحرجة.. حتى ثار لومومبا وضرب بتقاليد الجنوب.. ولم يعد يرضخ بأن الأخ الكبير فى محل الوالد، احتراما وطاعة. وأعلن ذلك أمام العاملين.. متبرئا من تصرفات شقيقه.

واتسعت شقة الخلافات بينهما.. وإذا ما توسطت يوما فى مصالحة الأشقاء - عدد لى «لومومبا» عشرات الأسباب التى تجعله يقف ضد أخيه الكبير تشومبى.. وقلبه ينفطر حزنا على ضربه بالتقاليد الراسخة وقدسية العلاقات الأسرية الجنوبية!

ومن خلال تقديم لومومبا للأسباب.. علمت بأنه فى ورطة دائمة، وقد ترك له (تشومبى) أمه العجوز تعيش فى بيته.. وباع متعلقاتها الشخصية.. ولم يعد ينفق عليها مليما، وأمه تسرف فى تدخين المعسل السلوم.. وتغرم بأكل الحلاوة الطحينية، كما أنها لا تشرب الشاى إلا باللبن الحليب.. وفوق ذلك فهى لا تهمد من زيارة بيوت أولياء الله الصالحين، وتحتاج لمن يرافقها.. وفى اعتقادها أن كل مسجد بالإسكندرية، هو بيت لولى صالح، دعوته مقبولة..!

وقمت بمحاولة إقناع تشومبى بأن الحياة فى الإسكندرية تختلف عن الحياة فى النجع الجنوبى. وأن لا يؤلب على أخيه الأعمام

والأخوال.. وأن طاعة الشقيق الأصغر للشقيق الأكبر تكون محكومة وواجبة إذا لم تكن تدفع به إلى ورطات تربك حياته، وتضيق الخناق على أولاده، وفيما يبدو أن (تشومبى) اقتنع بأن يبتعد عن شقيقه كضامن لقروضه، وبدا أن الشقيقين تصالحا على أن يكون كل منهما فى حاله..

واعتقدت بأن الأستاذ عبد الصمد.. سيدفع إلىَّ بأخبار معادة.. «عن تشومبى الذى يتمسكن ويسفح الوعود لمن يقرضه المال، ثم يتنصل.. حتى يصير الضرب فى الميت حراما!!»

وكان «تشومبى» قد وعدنى.. خيرا.. ثم هدأت المشاكل التى يثيرها واعتقدت أنه عثر على عمل خارج الشركة يشغل به وقت الفراغ.. ويدر عليه دخلا يغنيه عن السؤال.. والشكوى منه، وإثارة المشاكل..!

وقد شاهدت تشومبى أخيرا، وهو يرتدى البنطلون الجينز الأصلى، وحزامه العريض من الجلد الطبيعى، معلقة به ماركة عالمية. وفى قدميه كوتشى يتخلل الحروف الأفرنجية المطبوعة على النعل سهما.. وقميصه من النوع المستورد.. جيبين فى الصدر. واسبلايت على الكتفين. وصار جسم تشومبى الضئيل، ينافس هيئة طالب جامعى ابن ذوات.. ومع قصة الشعر التى خفقت الفودين وتركت فى وسط رأسه كومة من الشعر المدهون بالزيوت منظره أدهشنى.. ولما ابتسمت فى وجهه.. ابتسم فى وجهى، فبرزت أسنانه لامعة بيضاء.. تذكرنى بالمغنى الأمريكى المشهور الذى أمكن

له أن يحول جلده الأسود إلى اللون الأبيض الشاهى..!

ومع أنى قلت كلاما كثيرا - يصلح كمفاتيح تفتح المغاليق - فقد كان «خليل تشومبى» يضحك فى وجهى ولا يتحدث عن العمل الذى «يدر عليه دخلا» مما جعل المشاكل من حوله تهمد.

،، ولما قابلت (لومومبا) استفسرت منه عن التغير الذى أصاب تشومبى.. فقال: «العملاء».

ثم وضح المسألة بأن تشومبى يشتغل كوسيط تجارى فى بيع الأجهزة الكهربائية والمنزلية..

والعمال فى المصنع، كانوا يذكرون اسم تشومبى لمن يحتاج لشراء فيديو أو ثلاجة أو بوتاجاز.. أو حتى تسجيل استريو.. ويتحدثون عن التسهيلات التى يقدمها للعمال من زملائه.. وهمس أحد العمال فى أذنى:

- تشومبى.. عقبال أملتك.. بيشتغل فى خمسين باكو!

اندهشت وقلت: «يا سلام..».

وأكد لى آخر.. بأن ربنا أعطاه عن وسع..!!

وسألت:

- ومن أين أتت إليه النقود وهو منذ ستة شهور تقريبا كان يوسطنى حتى لا يؤذونه الدائنون فى بدنه، وكان يذكر أمامى.. أنه ضعيف وليس له فى الضرب والعراك..

وقالوا: أصله بيشتغل فى المستورد

وقالوا: سنة بالكثير.. ويصير تشومبى أغنى من تشومبى الحقيقى الذى باع ثروات الكونغو لحسابه..!!

* * * *

قلت للأستاذ عبد الصمد:

- أتوقع أن أسمع بأن (تشومبى) انتقل من مصاف العمال المساكين إلى مصاف المليونيرات وشركاتهم عابرة البحار!

وضحكت.. بين مصدق ومكذب لما أسمعه وأراه..

وقال الأستاذ عبد الصمد:

- لقد استحدث تشومبى.. أسلوبًا جديدا فى بيع الأدوات الاستهلاكية لحسابه، فهو يصحب من يرغب من العمال فى شراء أجهزة كهربائية أو اليكترونية.. أو حتى منزلية إلى الشركات التى تعلن عن تقديم بضائعها بالتقسيط لموظفى الحكومة والقطاع العام.. إنها مجرد استمارة تملأ وصورة بطاقة ترفق.. وضامن يضمن..

وكان يقنع من يحصل على (البضاعة) بنصف ثمنها نقدا، بأن يقوم بدور الضامن، حتى يسهل لنفسه الحصول على ما يرغب.. وبعد توقيع الضامن.. يقوم تشومبى باستلام - نصف ثمن الجهاز منه - يدفع القسط الأول أمامه.. ويأتى المشترى الحقيقى بوسيلة النقل وينقل الثلاجة أو التليفزيون.. أو حتى البوتاجاز إلى منزله..

ومن كل محل.. يشترى تشومبى - شيئا - ويبيعه..

وعندمـا حل نظام المكافـآت للذين يـرغـبـون فى تسـويـة المعـاش المبكر، اتسع نشاط تشومبى بضمان المكافأة المضمونة..

ولما علم الـدائنون بأن «تشـومبى» أخلى طرفـه من العمـل وتسلم شيكا بالمكافـأة.. راقبوه بشـدة.. مـراقبة لصيقـة.. حتى لا يصـرف المكافأة ويهرب..!

ومـبلغ المكافـأة كـان أقل كثـيـرا ممـا هو مـدين به لعـدة محـلات تجـارية، وقع لهـا على كمبيالات.. ومنـذ استلامـه للشـيك، ترصـدوه بداخل البنك وخـارجـه.. وأتوا بعمـالهم الأقـوياء لينزعـوا منه فلوس (المكافـأة) بـالقـوة ويحـصلوا على مـسـتـحـقـاتهم بـالعـافـيـة إذا لزم الأمـر..!

ولكن تشومبى.. كان قد رتب أمـره ترتيبا شيطانيا، أرسل بأولاده مع زوجتـه إلى نجعـه فى الجنوب.. واسـتلم من صـاحب البـيت خلو رجل للمسكن.. وطار من الإسكندرية إلى القاهرة فى «بيجو»، ثلاث سـاعـات وكـان قـد صـرف قـيـمـة الشـيك من بنك القـاهرة الرئيسـى، ودفع قيمة المكالمة التليفونية العاجلة والفاكس..

ثم ذاب فى مـلايين القـاهرة.. وصـار ذرة من غبـارهـا.. ولم يجـد الدائنون بـدا.. من تحـويل المديونيـة الخـاصـة بالأجـهـزة إلى «الضـامن».. الـذى دفع نصف الثـمن نقـدا وسـيـدفع باقـى الثـمن أقساطا..!

وتحول المشترون الضامنون.. إلى لومومبا.. ليتحمل وزر أخيه تشومبى

* * * *

وتحركت الإدارة.. واللجنة النقابية.. لتذجر الذين تصوروا أنهم يخدعون تشومبى.. فخدعهم.. وقادهم من أطماعهم إلى الهاوية.. حتى نرفع يدهم عن لومومبا المسكين!!

كان قد تجمع عدد كبير من أصحاب المحلات التى تبيع سلعها بالآجل مع عدد من الضامنين.. الذين حصلوا على الأجهزة ويستمتعون بها..

وكنت شغوفا بأن أسمع التفاصيل..

وأمسك نفسى بشدة.. حتى لا أنفجر بالضحك، ومعظمهم مقهور يكاد ينفجر من الغيظ.. ومن الولد نحيل الجسم.. الذى لعب بهم جميعا..

وسريعا ما أطلق العمال الساخرين على ما حدث - عنوانً جديد - «الهروب الكبير»..

مستخدمين اسما لفيلم أجنبى شهير..

هرب فيه عدد من أسرى الحلفاء.. من معسكر اعتقال ألمانى تتسم حراسته باليقظة الشديدة والذكاء المتعالى!

كما حدث لتشومبى «فص ملح وذاب».

معاناة الأسطى حسين

فى وظيفة البيه المدير

.. من المعلوم بأن وظيفة «أسطى» فى المصانع الأهلية أو فى «شركتنا» التى هى.. قطاع عام تعتبر - هذه الوظيفة - المحطة الأخيرة التى يتطلع إلى شغلها فئة العمال بالأقدمية أو المحسوبية..!

ومعظم من يشغلون هذه الوظيفة يتحولون قبليا إلى كبير «جماعة» من العمال الذين يأتمرون بأمرهم، ويلجأون إليهم فى حل أزماتهم.. وبطاعتهم، يحصل «الأسطى» على سطوته، بين أسطوات الشركة.. وأمام «الإدارة».

وعادة ما يكون «الأسطى» المتدرج «عامل» قليل الثقافة ومعدوم

التعليم.. ولكن هذا المجال، والأعمال التى يشرفون عليها. ضمن سلسلة خطوات الإنتاج بالمصنع، لا تحتاج منهم إلى كثير من المعرفة الثقافية، فهى أعمال مهنية بحتة.. وفى هذا تحديدا، تقاس كفاءتهم سنويا، وترصد من أجلهم تقدير نسبة العلاوات الدورية!

ومعظم أسطوات الشركة، لا يخجلون من كون أصولهم فقيرة ومعدمة.. وربما يتفاخرون بأنهم شقوا طريقهم بعصاميتهم، ولا عائلة تساندهم أو نفوذ يعضدهم..

ومعظمهم يتبرأون من عار «المحسوبية» التى تلصقهم بالعبودية لكبير من الكبراء - والتى تعتبر فى دستورهم سُبّة فى جبين من يتعاطاها. وفى ذلك أيضا كثير من الاعتداد بالنفس، الذى يخطو على الفقر والعوز. فى شعور بالحرية والندية - مبعثه عدم وجود ممتلكات أو أموال أو حتى مناصب.. يخشى (العامل) ضياعها وفقدها.. فلماذا يطاطئ إذا لم يكن يفكر فى أن يعلو؟!

والعمال لا يستنكفون أو يتنصلون من الفقر، وقد اعتادوا عليه.. اعتياد ساكن الصحراء مع اللون الأصفر الرحيب..!

•

وعن مسمى «أسطى» يقول الأستاذ عبد الصمد «فيلسوف مخلة» كما يسميه العمال فيما بينهم..

«إن «أسطى» تعنى رئيس باللغة التركية - كما أن («أستاذ») تعنى رئيس باللغة الفارسية و(«معلم») تعنى رئيس باللهجة المصرية.. ولا فرق بين هذه الكلمات إلا فيما تحمله من دلالات، ومقاصد، حددتها المصطلحات عبر التاريخ..».

وإذا كـان من المعـتـاد أن يكون سـقف الوظائف العـمـاليـة هى «أسطى» التى تحـولت فى بعض المسـمـيـات إلى «مـبـاشـر».. أو «ملاحظ».

فـإن تفكيـر «الأسطى» وطمـوحـه فى أن.. يرقى.. إلى منصب مـدير للمـصنع.. أو كبـيـر أسطوات.. كـان بمثـابة حلم مـسـتـحـيل التحقيق.. وخـاصة بعد تدفق عدد كبيـر من طلاب كلية الهندسة.. وحملة البكالوريوسات دون أن يعثروا على العمل المناسب..!

لذا يكون ذلك أشبه بمن يحلم بوجود بحيرة من الماء العذب، فى الصـحـراء القـاحلة.. وتصـورات العطش الشـديدة.. تجـعله يرى السـراب بفـعل الحـرارة التى تبـخـهـا الرمـال مـاء.. ولا يقـبض فى مسعاه إلا على الفراغ واللظى وهو يعدو فى اتجاهها..!!

والحكاية أن.. الأسطى حسـين البلتـاجى.. وقـد أجـاد القـراءة والكتـابة دون الجلوس على تختـة المدرسـة.. لكنه تقـرب إلى بعض المديرين بالإدارة الوسـيطة والعليـا.. منذ تواجـده فى اللجنة الأساسية للاتحاد الاشتراكى العربى..

وتمكن أن يلضم عدة عـلاقات خاصـة، مع خدمات وتمسحات، وعدد من الخبصات.. كمن يلضم حبات عقد طويل.. وأوصل العقد إلى الذين انقلبـوا على «اللجنة الأسـاسـيـة» فـصـار من أعـوانهم ونصرائهم..!

وتمكن حسـين البلتـاجى بدهاء، أن يخطط ويبـذل الجـهـد المتواصل.. حتى وضع نفسه فى بؤرة اهتمـام «ثوار التصحيح» فتم ترشـيحـه إلى وظيفـة «كبـير مـلاحظين» بما يعنى أنه صـار كبـيـر

أسطوات.. وبالتالى أوكل له إدارة أقسام المصنع.. فجلس على مكتب مدير المصنع كأول مدير مصنع من فئة العمال غير المؤهلين وهو ما لم يحدث للمصنع.. حتى أيام «اللجنة الأساسية» وتحالف قوى الشعب العامل.. إذ أن هذه الوظيفة كان لابد لمن يشغلها، أن يكون حاملا لمؤهل فنى أو صناعى.. إذا لم يتوفر لها بكالوريوس هندسة فى الأغلب الأعم!

* * * *

وهنا اعتبر الأسطى حسين البلتاجى.. الرائد الأول.. لطموح الأسطوات وتطلعاتهم، فى أن يشغلوا هذه الوظيفة المرموقة.. على مستوى الشركة التى تضم ثمانية مصانع متفرقة.. خمسة منها بالقاهرة .. وثلاثة بالإسكندرية، وجميعها تعمل فى الصناعات الورقية والطباعة..!

وكم من الرواد.. دفعوا الثمن غاليا.. بفعل ريادتهم الأولى، وفتح شهية الأطماع والتنافس حولهم!

فقد ثارت الأحقاد والغيرة.. ضد الأسطى حسين البلتاجى.. وصار جميع الأسطوات من زملائه، يرون أنهم الأقدر، والأمهر، والأذكى، والأدهى، منه..!

وبذلك صاروا يعملون فى عكس أهدافه العلنية والخفية، ويريدون إظهاره دائما فى صورة الرجل غير المناسب، الذى تبوأ

مركزا.. فضفاضا عليه.. ولا يمكن أن يملؤه مطلقا (المصائب كانت تأتى له من تحت وليس من فوق»!).

* * * *

ولما كان حسين البلتاجى حويطا ولئيما.. فقد كان يتوقع ردود الأفعال ضده، فعمل لها حساباتها الخاصة واستعد بأن أمسك على كل أسطى زلة.. ونقطة ضعف..!

والزلات ونقاط الضعف يمكن جمع الكثير منها فى زمن الصداقات والزمالات.. وكل شخص لا يخجل فى أن يتعرى أمام أصدقائه..!

وأمكن له - بشىء من الوقاحة والصفاقة - أن يخرس معظم الألسنة.. ويلجمها!

كما تمكن أن يشق صفهم، ويفرق كلمتهم.. فآثر معظمهم الانضواء تحت لوائه، واعتبار ما حدث.. مباراة مشروعة، انتهت بأن يكون هو الغالب بالنقط. مع الاعتراف منه بقدرتهم على إرهاقه.. حتى يحترمهم.. وهذا يكفيهم مؤقتا!

* * * *

خلع حسين البلتاجى ملابس التيل الزرقاء.. التى يعمل بها الأسطوات بين الآلات والشحوم والأحبار والغبار الذى يثار من الورق والماكينات..

وصار يعمل وهو مرتديا البنطلون صوف الفانلة والبلوفر

الصوف غالى الثمن.. ثم عقد رباط العنق فى أيام الشتاء قارصة البرودة على القميص. عندما ارتدى البدلة التويد، ولم يفك عقدة رباط العنق.. فى أيام الصيف الحارة.. وهو يرتدى القميص نصف كم.. وصار يقلد المديرين الكبار.. يضع النظارة الطبية بجرابها بجيب الصدر.. مع قلم لونه يختلف عن الأقلام المعتادة، لزوم التأشيرات على التصريحات والأوراق.. كما صار يستخدم نظارة شمس إيطالية، لها ماركة عالمية مشهورة، واعتنى أن يضع فى قدميه حذاء غالى الثمن.. يواظب على تلميعه يوميا ويبدله مع لون البنطلون..!

وكل تطور يحدث على مظهر الأسطى حسين.. كان يرصد من قبل الأسطوات وعيونهم.. ويتناولوه فى أحاديثهم بالسخرية.. ومن هنا.. بدأت معركة حسين البلتاجى الحقيقية فى تبديل «فكرة» الأسطوات والعمال عنه.

وكان من الذكاء أن يفهم.. كيف يتناولونه فى أحاديثهم وكيف يرتبون له ما يضايقه.. وقد صاروا لا يذكرونه فيما بينهم إلا «بابن الفران» ويتعمدون أن ينادونه «أسطى حسين» وأراد تحويلهم إلى مسمى الوظيفة، التى يشغلها، ويستكثرونها عليه..

وصار لا يخجل فى أن يضع على لسان بعضهم ما يجب أن ينادونه به قل (سيادة المدير) أو (الأستاذ حسين) ويا سيدى لا تقل سعادة البيه المدير.. أنا لا أنسى أننا زملاء.. لكن الواجب أن يكون لى «برستيج» أمام العملاء والغرباء..

وإذا ما أخطأ العامل، أو الأسطى مرة ثانية.. فإنه يسلك ضده مسلكا يجعله لا ينسى هذا الخطأ..!

وهذه المسألة - التحويل من شيء اعتاد عليه العمال لشيء آخر.. لدواعى الأبهة ومزايا المنصب..

لم يكن - كما يظن البعض - شيء سهل وميسور.

فإن شوارع الإسكندرية لم يزل الناس يطلقون عليها أول اسم أجنبى، أو تركى، حملته منذ مائة عام..

برغم أن «الثورة» بدلت اللافتات، وأطلقت على الشوارع أسماء شهداء الحركة الوطنية.. والعربية.. والعلماء المحدثين من العرب.. أو أسماء الشهداء الأبرار..!

فإن لا حياة لمن تنادى.. الناس وما جبلوا عليه أول مرة.. وما يتوارثونه «مقدسا» أبا عن جد..

لكن حسين البلتاجى لم ييأس.. بالمثابرة والتخطيط واكتساب كل يوم.. «تحويلة» أو «تحويلتان»..

أمكن له أن يشنف أذنه بألقاب «المدير».. تشجيه وهو يسمع العمال.. والأسطوات بالذات.. ينادونه «سعادة المدير» أو «سيادة المدير».

والعمال الجدد - معظمهم من محافظة البحيرة، عينهم بنفسه من تسريحة ما بعد حرب أكتوبر..

كانوا ينادونه - «حسين بيه» - أو «سعادة البيه المدير» وكان يعتز

بهم بصفة خاصة، ويقدم لهم الكثير من التسهيلات فى الحضور والانصراف.. وكذلك فى احتساب الحوافز..!

لكن الأمر.. لم يمر بسهولة فقد ينسى أحد العمال القدامى أو الأسطوات المسطولين دائما.. ويزل لسانه ويقول له أمام جمع من العمال.. «يا أسطى حسين» هنا كل شىء يتجمد.. الكلام والحركة والنظرات والإشارات والأنظار تتجه مرة إلى «المخطئ» ومرة إلى «سعادة البيه المدير».. وكيف سيتصرف، وقد اكفهر وجهه، وعض شفته السفلى.. اللحظات تبدو طويلة ومشحونة بالتوتر، وهى مهما طالت.. سريعا ما تنفك.. لكن ذلك يتأتى بعد تعليق، به نوع من السباب، المغلف بالهزر، يطلقه سيادة المدير.. عندما يقول «للمسطول»:

– الأسطى.. أمك العالمة.. ترقص وتجمع النقوط..

ويتفجر الحضور بالضحكات.. نصفها مجاملة.. للبيه المدير.

* * * *

لكن مع وجود عدد يتزايد من الذين يخطئون دون تعمد أو بتعمد. فتنهال على رؤوسهم التعليقات الجارحة والساخرة، كما تتعطل مصالحهم، عندما يتمسك «البيه المدير» عليهم بالذات – بضرورة تنفيذ كامل بنود التعليمات والقوانين التى تحكم العمل..

مما يلفت نظرهم بشدة إلى ما لا يصح وما يصح، فى هذه الحالة، وما كان عليه أن يتساهل فيه.

وأيا كان الأمر.. كان حسين البلتاجى.. راضيا عما وصل إليه - وكان مستمتعا بعمله فى المصنع.. يريد أن يكون اليوم، مائة ساعة، يمضيها بداخل العنابر.. وعلى مكتبه، وحوله حاشية تتزلف إليه..!

ولكن الطابور المضاد.. الكامن فى وحدات الإنتاج، لا يكف عن إفراز المساخر ضد «سعادة البيه المدير» ابن الفران..

وعيونه - وآذانه - ينقلون إليه كل ما يقال.. فيراقب هذا الطابور بشدة ويحاول تحجيمهم..!!

ولا يعدم ظهور أحد الزعماء فى الجهة المقابلة - يقود التحدى - إنه «الأسطى فرج».. يقيم فى أمبروزو الشعبية.. ويعرف أهل (حسين) فردا.. فردا.. فقد ذهب إلى والده - الذى يبيع العيش البلدى الملدن على ناصية الحارة.. التى يسكن فيها.. فى سبت كبير من الجريد.. يدفعه على عجل رولمان بلى..

أمكن للأسطى فرج أن يواصل حديثا مع عم بلتاجى. ويبلغه فيه بما وصل إليه.. المحروس ابنه.. من مكانة هائلة وهو يعلم بأن حسين يقاطع أهله.

«لقد صار ابنك مديرا للمصنع.. وتزوج من علية القوم..».

«وأنت يا فقير يا عدمان.. طافح الدم فى نقحة الشمس من أجل ريالين.. لابد وأن تبيع أربعين طاولة عيش وتحترز من شرطة المرافق.. تعال معى إلى المصنع.. لعله ينوبك من الثراء الذى يرفل فيه ابنك.. جانبا.. أليس هو ابنك البكرى يا عم بلتاجى؟!».

وعم بلتاجى.. أخذ يفكر فى كلام الأسطى فرج..

عم بلتاجى تزوج بعد وفاة «زهيرة أم حسين».. من فوزية.. التى طفشت عيال زهيرة.. وجعلته يلقى بهم على أخوالهم الفقراء.. ويتخلى عنهم.. منذ زمن بعيد.. عندما ملأت له الغرفة بأولادها.. الرجل كان قد تناسى ما حدث.. وأنه لم يقم بدور الأب نحو أولاد زهيرة.. حتى إذا كان (حسين) قد عاش فى كنفه.. فإن كنفه، لم يكن ليختلف كثيرا عما آل إليه حسين فى صباه من شقاء..

أما وقد صار «حسين» مديرا وكما يقول الأسطى فرج.. له مركزه فى شغله.. وأمام أنسابه الأعيان، وتحت رجله «سيارة» ١٣١.. ففى هذه الحالة.. الوضع سيختلف.

«الفقر» هو الذى يجعل القلوب قاسية..

والأسطى فرج «فى لقاء آخر» حث عم بلتاجى على الذهاب إلى ولده فى المصنع.. وشجعه بقوله:

«وإن شاء الله يا عم بلتاجى لن تعود إلا محملا بما لذ وطاب.. وأقلها يضع فى جيبك حفنة جنيهات، أما إذا انقلب عليك وتنكر لك.. فأنت الآن فى أرذل العمر، وليس لك وظيفة ثابتة أو معاش دائم، ولك حق عند ولدك «الغنى». يمكنك أن تشكوه فى المحكمة وسوف يكون المسئول عن كفالتك.. بل وكفالة اخواته.. بالقانون يمكنك من أن تحصل على نصيبك فى أمواله.. «ولم يكف الأسطى فرج عن التحريض».

وعم بلتاجى قلب الأمر أمام زوجته فوزية.. فشجعته وقالت:

جائز يعمل بأصله.. ويخاف أن تعره أمام الناس.. فيعطيك ما يكفيك.. جرب.. أنت لن تخسر شيئا..!

* * * *

وفعلها عم بلتاجى بائع الخبز.. وذهب إلى المصنع وهو فى ملابسه الفقيرة وقال على البوابة للحراس:

- أنا والد الأسطى حسين.

وقالوا له: لا تقل الأسطى حسين.. قل البيه المدير

والرجل رفع وجهه إلى السماء وقال:

- ربنا يزيدك من نعيمه يا ابنى.. ويعلى مراتبك!

والأسطى فرج.. كان يتوقع الزيارة بالدقيقة والثانية، كان قد حشد الطابور المضاد ليشاهد العمال والد البيه المدير وهو فى ملابسه الرثة، وكهولته البائسة والشحتوفة التى فى قدميه المفرطحتين..

وظهر الأسطى فرج فى زفة من العمال الذى يرحبون بوالد المدير ويغالون فى الترحيب به ويشقون معه الطريق من منتصف المصنع..

حتى يدخلونه إلى مكتب ابنه الفخم..

وفوجئ «حسين» بشرزمة تدخل عليه، بينهم والده - وبعضهم

يغالى فى الترحيب بوالد البيه المدير.. والرجل وقف ينظر إلى ما أشاروا إليه وقالوا له: ها هو ابنك يا عم بلتاجى.. أنظر الأملة التى هو فيها..!

الرجل كان زائغ النظرات.. وحسين كان منهمكا فى عمل كتابى، رفع وجهه ورأى اللمة، ووالده يتصدرها.. فتجمد لحظات حتى يسيطر على المفاجأة.

وعم بلتاجى لم يتعرف على ابنه لوجاهته.. ولكن «الدم يحن» فقد شعر بشىء من الحنو، واستعد لأن يحتوى هذا الشاب النظيف الممتلئ نوعا فى أحضانه، وتصور الرجل أن كلاهما سيبكى على كتف الآخر.. إذ مضت سنوات طويلة لم يتقابلا.

* * * *

كان حسين البلتاجى قد تزوج من السيدة «سعدية البدرى» ذات الثراء العريض والأصل الوضيع.. أمها الست أنيسة.. أسطى عالمة فى البياصة - أعطاها الوهاب عن وسع.. فاشتهرت بأنوسة.. وصارت صاحبة كازينو بيكاديللى.. الذى يطل على بحر الميناء الشرقية، ويعطى ظهره لمحطة ترام الرمل.. والناس لم تنس تاريخ أنوسة غير المجيد مع أنها ثابت وأنابت وحجت إلى بيت الله.. وصفت أعمالها فى الرذيلة.. وحصرت أموالها فى عمارة كبيرة فى شارع السلطان حسين مكونة من ثلاثين شقة سوبر لوكس.. قامت ببيع العمارة وسجلتها لابنتها سعدية.. قبل وفاتها.. ومع ثراء سعدية فقد كانت ضحية لعدة زيجات «فالصو» آخرها زواجها من

مغنى شرائط كاسيت.. ليس له حظ فى «الإذاعات والحفلات العامة.. وكان «حسين البلتاجى» زوجها الرابع الذى انتقلت إليه السيارة ١٣١ التى كان يركبها «المغنى» الذى لا يحفظ أغانيه.. ووافقت (سعدية البدرى) على الزواج من حسين بيه بعد أن تسلمت الكارت والصورة بواسطة «الخاطبة» الكارت له إطار ذهبى.. يضيف على اسمه بالبنط العريض لقب «مدير مصانع بشركة جوستى» إحدى شركات وزارة التموين والتجارة الداخلية.. ثم أربع أرقام لتليفونات الشركة..!

وعندما اتصلت العروس التى رغبت فى الزواج قبل حلول عامها الأربعين من ناحية.. ومن ناحية أخرى حتى تكيد «المغنواتى» الذى طلب من مؤلف أغانيه - أغنية تبدأ بجملة «ح أجوز وأكيدك.. واحرق قلبك يا قالبنى» رد عليها عامل السويتش - وأبلغها بأن من تسأل عنه - هو مدير مصنع النزهة.. وأكد لها بأنه - موظف فى الحكومة - كما أضاف بأنه. موظف عليه القيمة.. وتحت يده اثنا عشر أسطى يهدوا جبل..!

وفى يوم وليلة.. تمت الخطوبة.. وحصلت منه (سعدية هانم) على المهر القليل الذى حدده بمقياس مهور حارة بطوطة التى يسكن فيها بالرمل.. ثم أعطته خاتم وأسورة سوليتير يقدمها لها فى الحفل الكبير، الذى حضره كبار المطربين السكندريين، وصغار المطربين القاهريين..!

وقبل يوم الزفاف.. منحته مفاتيح الـ ١٣١ - ودستة من البدل بأطقمها كاملة.. وملابس أخرى فيما يبدو كانت مستعملة.. وألوانها صارخة.. وبعضها محلى بالترتر!

وبذلك صار «حسين البلتاجى» يركب سيارته الخاصة، ويأكل على سفرة يخدم عليها سفرجى، ومن طعام يصنعه طباخ حاذق.. فانتفخت أوداجه، وتوردت خدوده، وصارت ذقنه ترتاح على لغد صغير، ينم عن العز الذى يرفل فيه.. فلا غرو أن لا يتعرف عليه والده من أول وهلة..!

* * * *

والمسألة.. عندما فوجئ حسين البلتاجى.. بوالده أمامه، وخلفه زفة من العمال.. اضطر أن يرسم على فمه ابتسامة.. ويحافظ عليها بصعوبة.. وبعدها قام وصرف العمال إلى أعمالهم.. وبعضهم تلكأ.. وأجلس والده على مقعد ومن بقى، كلفه بشىء ليصرفه.. وتناول جاكتته المعلقة فى المشجب خلف مقعده عالى الظهر، ارتداها بهدوء، واطمأن على ما فيها.. ثم أغلق درج المكتب الكبير بالمفتاح، وأبقى ثلة المفاتيح فى يده.. وقد حدد بين أصابعه مفتاح السيارة.. وسحب والده من ذراعه فوقف.. وأمسك برسغه وجره خلفه.. شق به الطريق إلى باب الخروج.. ولم يعر العمال الذين تجمعوا بجانى المكتب التفاتا، كان يسير بخطوات واسعة حادة.. ووالده يشحتف وهو يجرى بجانبه، ويلهث..

خرج به من بوابة المبنى بينما يلقى ببعض التعليمات التى تخص العمل.. أخطر كاتب البوابة.. بأنه سيعود حالا.. سيوصل والده ويعود.. ودفع والده فى المقعد الذى يجاور عجلة القيادة.. وأسرع وجلس فى السيارة، وأدار موتورها.. تراجع بها إلى الخلف بشدة ثم

استدار وانطلق.. وصوت الكابح يصدر زعيقا عاليا.. والرجل لا يدرى.. هل ابنه يرحب به على طريقة.. الأثرياء الذى لا يستعملون كلمات الترحيب بقدر ما يغرفون ويملأون له يديه وجيوبه.. أم أنه سيتخلص منه، والرجل أفاق على زحام السوق فى أمبروزو، وصوت كلاكس السيارة عاليا متقطعا يفسح الطريق، حتى وقف أمام سبَتْ العيش (المقمر) وواحد من أولاد فوزية الملسوعين، يحل محله فى بيع العيش..

وقال حسين لوالده وهو مطبق الأسنان دون أن يلتفت إليه:

- من الذى دلك على طريقى يا بلتاجى؟!

وقال الرجل فى شىء من الاندفاع:

- الأسطى فرج.. ربنا يخليه لأولاده..

تنفس حسين بصوت مسموع، وقال لوالده دون أن يلتفت إليه:

- انزل من السيارة.. إن عتبت باب المصنع تانى سأقطع رجلك..!

قال الرجل دون شعور بالحزن: عيب يا حسين أنا أبوك..

قال له حسين: أنا ليس ابنك.. ابنك حسين الذى رميته لكلاب السكك.. مات من زمن طويل.. أنا حسين الذى لا يمت لكم بصلة.. فاهم.. والبلتاجى يبحث عن طريقة يفتح بها باب السيارة.. كان يقول:

- أنا مسئول منك يا حسين.. أنا واخوتك.. مسئولين منك قدام القانون.. وارتج حسين.. وللحظة فكر فى أن لا يدل البلتاجى على

طريقة فتح الباب المسوجر.. وأن ينطلق بالسيارة إلى ترعة المحمودية القريبة.. ويضع بدنه القليل فى جوال.. يغلقه.. برباط محكم.. ويلقى به فى قلب ماء الترعة الأخضر المكتظ بالأعشاب والجيَف..

ولكنه وقد استنشق نفسا عميقا.. مال وفتح له المسوجر.. وضغط على الباب ففتحه له.. وهو يردد.. انزل يا بلتاجى.. آخر مرة أشوفك فيها.. فاهم..

والرجل نزل خالى الوفاض.. ورزع الباب.. وصاح فيه وهو ينطلق بالسيارة: لأ موش فاهم يا حسين!

والناس الذين تجمعوا.. عرفوا أن حسين هذا.. هو ابن البلتاجى، لكنه يقود سيارة فخمة..

ولما مشى حسين بالسيارة وترك والده يبرطم بالغضب، والحنق، الناس سألت عم بلتاجى: هل صار حسين ابنك يعمل سائقا؟

قال لهم وكأنه يسبه: أبدا يا خوانا.. إنها سيارته.. وحسين صار مديرا.. ويعيش فى محطة الرمل، لكنه قليل الأصل مثل أمه زهيرة..

* * * *

لعل حسين البلتاجى أثناء هروبه من أمام حارة لعب فيها وهو طفل.. ومن شارع السوق الذى نام فى جوف عرباته، عندما كان يطرده والده ويتخلى عنه وهو صغير.. كان يشعر بمشاعر

متضاربة.. بالهزيمة والفوز.. ولكن مهما كانت (ماهية) الشركة وحواشيها.. فهى (ماهية) محكومة بالعلاوات الدورية المحددة.. وما ينفقه البيه المدير.. فى الشهر.. يحتاج لخمسمائة علاوة استثنائية تضاف على مرتبه.. وما ينفق على السيارة يوميا.. أكثر مما يستخدم تاكسيا فى التنقل به.. ومرتبه الحقيقى، وما يكتسبه من حوافز وبدلات، ومكافآت - والذى هو محل نق وحسد من العمال زملائه - لا يدرون بأنه صار ضئيلاً جدا، وأنه صار يشعر بأنه فقير جدا.. أفقر مما لو ترك بعيدا عن.. شقة سعدية هانم ورياشها وأثاثها وبعيدا عن سريرها.. وحفلاتها وأصدقائها ومعارفها.. وأنه حتى لو فكر أن يمنح والده وأخوته شيئا من المال.. أو يقوم بتقديم كسوة لهم.. فإن ذلك لن يتدبر له بسهولة..!

الانتقال إلى حياة أخرى.. كشفت له.. كم كانت حياته فقيرة ومتواضعة. وكم هى لا تزال فقيرة ومتواضعة، وقد صعد إلى مكانته هذه بشىء من التنظيم والمثابرة وبكثير من الدهاء، وبيع نفسه لمن هم أدنى منه..!

شعور كان يذبحه ويريق دمه فى أمسيات كثيرة، ولكن الحفاظ على مكانته.. صار أقسى من عمليات الصعود، وهو ينحت الصخر بأظافره.. كيف يجد الهدوء ويتلذذ بما وصل إليه.. والمعارك الرهيبة انفتحت عليه فى جبهات عديدة.. فى العمل.. وفى المنزل.. ومن جهة الأهل.. حتى الأصدقاء لا يجد بينهم ذلك الصديق

المخلص، الذى يتقرب إليه ولا يداهنه لأسباب يضمرها.. وقد أضيفت إلى مكابداته.. حملة المؤهلات العليا والمتوسطة.. وطموحاتهم التى تستهدف تدميره.. الشركة تعينهم دون أن يطلبهم، من فائض سجلات مكتب العمل، الذى لابد وأن يلغى من جذوره.. أنه يفاجأ بهم على قوة عمالة المصنع.. فيلقى بهم فى المهمات التى يفشلون فيها.. إما أن يظهرهم بمظهر الجهلاء أو المغفلين.. ويتخلص منهم، إذ لم يكن لأحدهم ظهيرا من الموظفين الكبار.. فيضطر إلى نقله من المصنع إلى الفروع، أو الإدارة بالمنطقة، أو حتى يضغط عليه ليطلب نقله إلى إقليم آخر..!

لكن الهجوم المتوالى.. كهجوم الهنود الحمر الكثيف.. يبطل عمل البنادق.. ويفلت أحدهم ببلطته وسكينته.. ليغرزها فى قلبه..

* * * *

سليمان أحمد الكافورى.. مهندس.. متأنق فى ملبسه طويل البال.. أفلت من حصاره.. ظل يجمده فى أعمال كتابية ولجان، ويرسل به فى مهام خارج المصنع.. ويضغط عليه بالعمل..

لكن المهندس سليمان.. كان لديه إصرار غريب على أن ينجح، فى كل مهمة يكلف بها، وأن يسد أمام المدير أى منفذ يمكن أن يوجه إليه منه توبيخا أو تقريرا بالفشل.. وكلما أبعده عن المصنع والعمال والأسطوات وذلك الطابور المضاد.. كان المهندس يأتى ويظهر بين العمال.. آلة تتعطل، يتقدم لاصلاحها أو معاينة للمكان والتعديلات الجديدة فى عنابر الأقسام..!

«وعيون المدير» نقلوا له - الحفاوة التى يقابل بها المهندس سليمان.. من شلة الأسطى فرج.. وأن هذا ليس حبا فيه.. ولكنها «كراهية لك يا سيادة المدير».

والهَمّ - هَمّ هذا المهندس - ركب على كاهل - المدير، وأدلى بساقيه، فلم يستطع أن ينساه.. حتى وهو فى بيته.. ومع زوجته سعدية هانم التى تخشى «أن يتلم على واحدة ممن يشاهدهم فى الحفلات».

هيئت له أن يعترف.. فاستفاض فيما يشغله.. وتنفست الصعداء.. إذ كان معظم حديثه عن ذلك «المهندس الصفيق» الذى يدفعه أعداؤه فى طريقه ليكون منافسا له فى مكانته!

أما والمسألة انحصرت فى هذا - المهندس - فقد ذكرت زوجته أمامه كيف كانت أمها أنوسة ترشح وتقيل وكلاء الوزراء الراسخين.. على أساس أن الوزراء فى عصرها كانوا يرشحونهم ويقيلونهم تباعا.. فى حالة من عدم الاستقرار.. والمثل يضرب بوكيل الوزارة الذى يظل ثابتا كالطود فى مكانه عبر كل الوزراء، والتشكيلات..

«كانت أمى أنوسة تفعل ذلك وهى السيدة الأمية التى لا تعرف «السما من العمى» أما أنا يا حسونتى.. فلى علاقاتى الخاصة، مع «أعمامى» أنت لا تدرى مدى نفوذ عائلة البدرى.. بابا كان بيك - بحق وحقيق.. وكثيرا من البكوات تزوجوا من راقصات.. وكان السبب الرئيسى فى توبة أمى النصوحة.

وحسين البلتاجى لم يكن يهمه.. إلا أن يزيح المهندس الشاب عن طريقه..

وقالت له سعدية هانم فى دلال:

- هذه مسألة هينة أعطنى بيانات عنه.. وسيقوم عمى وكيل الوزارة.. بنقله بعيدا عن مصنعك..!

ولما زودها بالبيانات.. قامت باتصالاتها.. فلم تعثر على وكيل وزارة واحد من صنائع أمها.. ولعنت الحظ، ثم انقلبت لاستخدام الخطة البديلة.. إذ أن جميعهم «خرج طبقة وسطى دنيا..» حل محلهم خرج طبقة وسطى عليا.. يرطنون باللغات الأجنبية..

ولم تجد أمها إلا أن تدفع.. أحد الأصدقاء الذى يؤانس ترابيزتها فى معظم السهرات.. بأن يعين المهندس سليمان أحمد الكافورى فى إحدى منشآته.. براتب مضاعف، ثم يتخلص منه لو أراد فى وقت لاحق!!

وقالت: (حسونتى) أن عمها الفوقانى «جلال بيه» اتصل بالمهندس وسحبه من شركتكم وعينه فى شركته.. فلم يعد له وجود عندكم..

وطار حسين البلتاجى من الفرحة.. قبلها واحتضنها فأبعدته برفق حتى لا يفسد لها مكياجها..

والعم الفوقانى.. جلال بيه.. أخذ يشيد بنشاط المهندس الشاب - «الهدية..» ويشكر مدام سعدية على أنها قدمت له مهندسا

ممتازا «حمار شغل» وذكى جدا ثم حكى لها عن آخر ابتكاراته.. فاشتاقت سعدية البدرى.. أن ترى ذلك المهندس الذى كان مبعث ضيق لزوجها.. وصار مبعث بهجة لعمها الفوقانى..!

* * * *

(خميس) أحد العاملين فى الشركة.. يعمل فى الفترة المسائية جرسونا فى الكازينو الكبير الذى.. اعتادت.. سعدية هانم أن تحجز فيه ترابيزتها. شاهد «حسين البلتاجى» يسكر طينة.. فأبلغ العمال بذلك..

قال الجرسون العامل:

- أنا شفته بيسكر مع مراته سعدية هانم.. التى كانت ترتدى ثيابها الـ «شوفتشى».

والعمال.. فغزوا فاههم للثياب «الشوفتشى» - التى لا تعطى جسم المرأة طبقا للأصول. ولكنهم قالوا:

- زوجة حسين البلتاجى سيدة جميلة.. وملابسها يا خميس على الموضة.. وفى هذه المجتمعات.. الرجل والزوجة.. وحتى عيالهما يرتدون «الشوفتشى» ويسكرون. وإلا فى ماذا يضيعون أموالهم، التى تأتيهم بالزوفة؟!

وقال خميس العامل نهارا.. والجرسون ليلا:

- المسألة يا جماعة ربنا يسامحنى بقى.. لما سكرت سعدية هانم، قامت تتطوح ورقصت مع رجل كبير.. وأنا شفت بعينى.. التى

سيأكلها الدود.. الرجل الكبارة يبوسها من خدودها.. ويضمها فى صدره.. ثم ضبطهما فى حالة انتشاء وتقبيل عنيف، كما يحدث فى الأفلام الأجنبية. وامرأة المدير كانت هائمة فى أحضان الرجل الكبارة، وأنا ساعتها لم أكن أعرف ماذا أفعل.. الحمد لله تمالكت أعصابى.. اقتربت من الترابيزة التى يجلسون عليها فوجدت «حسين البلتاجى» سكران، ويخاطب السيدة العجوز التى تركها له.. الخلبوص الكبارة على الترابيزة، ولعلها زوجته.. والسيدة زوجة الخلبوص كانت هائمة فيما يقوله.. سيادة المدير.. وكأنها تقول به «كف عن الكلام وابدأ العمل» فقد كانت تتحرك وتميل نحوه وتمسك بيده.. وكأنها تدعوه.. فلا يفهم مقصدها..»

وأنهى خميس العامل نهارا.. والجرسون ليلا.. كلامه مع العمال بأن «المسألة يا جماعة.. صارت بزرميط.!».

وعلق واحد من العمال:

– أصل والده.. عم بلتاجى.. دعى عليه ودعوة الفقير مستجابة!

وقال آخر:

– دعوة عم بلتاجى لا تبعد عن سبت العيش خطوة واحدة!

وقال آخر:

.. الرجل كسيب ويبيع الرغيف بضعف ثمنه بعد تلدينه وتّجفيفه ويكسب أكثر من أى أسطى فى المصنع.. ورامى جتته على ابنه الذى لم ينفق عليه مليما..

وسأل أحد العمال:

- أمال سعدية بتخون حسين بيه ليه..؟!

وقال أحد العمال المتنورين:

- وهل هذه خيانة يا جماعة.. التقبيل فى أوروبا مثل السلاموا عليكم عندنا.. وتبادل الزوجات فى أوروبا.. يحقق الشعور بالمساواة بين الرجل والمرأة، والمسألة هناك لا تنحصر فى الجسد.. وفئة من المقلدين عندنا.. ينقلون عن أوروبا كل المساخر ويتجاهلون.. أنهم هناك أصحاب اختراعات ومنجزات.. و..

وقال أحد الملتحين من العمال:

- لا تستمعوا لفؤاد يا إخوانى.. يسرح بكم ثم يدعوكم لأفكاره المستوردة.. عودوا إلى حظيرة إيمانكم.. واتركوا الخلق للخالق..!

ومع انصراف شلة العمال وتفككهم.. انتشر اللغط حول سيرة المدير البزرميط.. وكل عامل يضيف من تصوراته ومحرماته إضافة.. خرجت بالموضوع الأساسى.. لتصوير الرواية.. برواية جديدة.. تلعن جدود حسين البلتاجى.. الذى باع شرفه رخيصا من أجل حياة منعمة..!

* * * *

خميس الذى يعمل فى المصنع نهارا وبالكازينو مساءً عاد وأبلغ زملاءه بأنه شاهد المهندس سليمان الكافورى الذى اشتغل فى المصنع فترة.. ضيفا على ترابيزة سعدية هانم البدرى وحسين

البلتاجى بذات نفسه يرحب به.. ويبتسم إذا ما قام وطلب مراقصة (المدام).. وأن زوجته اللبؤة.. قامت بمراقصة المهندس الشاب.. وكانت فى ثوب حرير شبه عارية، والمهندس سليمان كان أنيقا ووجيها كنجوم السينما، وأنه كان يحتويها بين ذراعيه.. والمرأة تذوب فى أحضانه..

وقال العمال الذين يمسكون العصا من المنتصف:

- يا خميس حرام عليك.. ربنا سيدخلك نار جهنم.

ولكنهم استمعوا إلى كافة التفاصيل الدقيقة عن ظهور المهندس سليمان فى حياة مديرهم المنزلية.

وقال الأسطى فرج:

لو كان الأمر كذلك فإن المهندس سليمان، الذى ترك له المصنع.. اقتحم عليه عقر داره.. وهو بذلك يثبت أن الهندسة.. فن.. تفوق الصلاحية والخبرة..!

ولما علم سيادة المدير - من عيونه وآذانه - بما يتناقله العمال عن المهندس سليمان الكافورى.. وظهوره فى سهرات زوجته.. قال:

- هذا المهندس موهوب.. وأنا الذى توسطت له.. وألحقته بعمل فى شركة استثمارية.. صار يكسب أربعة أضعاف الراتب الذى كان يربطه بشركتنا، وأنه اعترافا منه بهذا الجميل.. أقام لنا حفلا.. ليرد على الجميل الذى بذلته.و..».

وعلق على الذين يواصلون الخوض فى التفاصيل:

- أنا لا أهتم بالذين يتقولون على أهل بيتى، أنهم جماعة يعيشون فى زرائب.. ولا فرق بينهم وبين الحيوانات.. كيف يدركون حياة الناس فوق، أن ذلك فوق تصوراتهم، وأحقادهم..

فقال الأسطى فرج:

- يا جماعة من عنده كلمة يلمها..!

* * * *

بعد فترة وجيزة من ظهور المهندس سليمان الكافورى على ترابيزة سعدية هانم البدرى فى الكازينو..

خرج القمر من مداره.. ولم يعد أحد يشاهده إلا حزينا كسيفا..

وركب المهندس سليمان الكافورى.. الـ ١٣١ التى سحبت من تحت أقدام «حسين البلتاجى» وقد بدا منطفئا غير لامعا.. كما اعتاده العمال..

وكان يغلق مكتبه على نفسه بالساعات الطوال، وكان يتعلل بالمرض ويحصل على أجازات.. أو يأتى ليرتب شغل المصنع.. ويتعلل بالذهاب إلى الإدارة وينصرف، ولا يعود إلى المصنع الذى كان «عشقه» الأذلى. وأشيع بأن سعدية هانم.. طلقت سيادة المدير الذى لا يفهم فى دقائق العلاقات العليوى!

وعن طريق خميس العامل الجرسون.. تابع العمال أخبار المهندس سليمان الكافورى.. وسعدية هانم البدرى ولم يؤكد خميس، إن كانت سعدية هانم التى تراقص المهندس سليمان كل

ليلة.. قد صارت زوجته على سُنة الله ورسوله.. أم خطيبته على سنة الحب وميوله.. وصار خميس يعتنى بتفسير أشياء لا يفقهها العمال.. تبين أن لا فرق بين الزواج والخطوبة عند الناس الأكابر، والأمر قد يختلط على من لا يفهم فى دقائق هذه الأمور، فيظن أن الخطيبان المتلاصقان.. كأنهما زوجان عاشقان..!

وخميس.. لم يستطع أمام العقول المتحجرة.. أن يوصل لهم تصوراته وخبراته المكتسبة..

والعمال يظنون بأن الخطيبان لابد وأن يكون معهما مرافق، من قبل أهل العروس.. يتعمد.. بتوصيات وتنبيهات مشددة بأن يكون محله الدائم بينهما.. كعازل بشرى..!

* * * *

ولكن سيادة المدير كان يدعى بأن سيارته الـ ١٣١ حدثت بها أعطال فتركها للباشمهندس سليمان الكافورى ليكتشفها بنفسه، ويشرف على تصليحها وإعادتها له. مما أربك تصورات العمال فى المصنع.

وخميس العامل الجرسون.. لاحظ بأن حسين البلتاجى اختفى عدة أسابيع ثم ظهر يجلس على يسار سعدية هانم هادئا.. وأنه كان يتناول طعامه وشرابه دون بهجة أو تلذذ.. وأنه لما شرب.. أخذ يضحك ويهرج مما جعل زوجته تلفت نظره مرارا لما يفعله.. وفجأة.. عاد سيادة المدير إلى يمين زوجته. على الترابيزة وراقصها.. وكانت تفرغ منه.. ليراقصها المهندس سليمان.. فى

وحضر سيادة المدير حسين البلتاجى بسيارته الـ ١٣١ إلى المصنع وانتقل المهندس إلى الجهة اليسرى من الترابيزة، حيث يجلس الأصدقاء الذين يتبدلون عادة..

– كيف صار عليما بطوبغرافية الترابيزات، قال:

– الناس الأكابر يتمسكون بأصول الإتيكيت ولا يعيشون كما اتفق مثلكم.. ولما سألوه: يعنى سعدية هانم.. أعادت حسين البلتاجى إلى عصمتها..

قال: ومتى طلقها؟!

ثم أخذ يقص.. كيف كان المهندس يحتضن الهانم وكيف كان حسين.. راضيا.. وهو يشاهد زوجته تراقص المهندس.. وكلما همس فى آذانها ببضع كلمات «سخسخت» من الضحك.

وقال أحد الأسطوات فى غضب:

– كل هذا.. يحدث من امرأة حسين البلتاجى. وهو قاعد على الترابيزة.. يرد خميس الخبير:

– قاعد طبعا.. وآخر انبساط.

ويعلق الأسطى فرج:

– ضرورى يكون آخر انبساط وإلا طق من جنبه ومات..

* * * *

لما أعلنت الشركة.. عن صرف مكافآت لمن يطلبون التحول إلى المعاش المبكر.

لم يدرج حسين البلتاجى اسمه فى الكشوف.. ليتفرغ للسهر فى الكازينوهات.. ذلك السهر الذى كان يبدو بأنه يرهقه.. ويقاوم.. فعاد يفقد رونقه الجسدى ولا يعلم أحد.. هل هى رغبته هو.. أم رغبة زوجته.. فقد تزوجته «مديرا»..

وقد تبين بأن سعدية هانم، قد وعدته بأن يرقى إلى درجة «مدير عام..» إذا صبر..!

قال لها: إن فى ذلك استحالة.. فهو أول من رقى إلى «مدير مصنع» من الأسطوات. قالت له بثقة: وستكون أول من يرقى إلى مدير عام.. واترك لى هذه المسألة..!

* * * *

سعدية هانم البدرى.. تتقن فن العلاقات الاجتماعية.. أمكن لها أن تنجح فى مسعاها وتفاجئ زوجها بكلمة - «مبروك يا حسونتى» - اترقيت مدير عام..

ولم يصدق حسونتى إلا ورئيس القطاع الذى كان مديرا عاما.. يهنئه ويهنئ نفسه به.

وقامت سعدية هانم.. بتغيير سيارته الـ ١٣١ إلى «مرسيدس».. لتليق بمنصبه الجديد..!

لكن الشىء المؤسف..

أن الشـركـة «كلهـا» صـارت مـعـروضــة للبـيع أو نصف جـملة.. ومـعظم الخـبـراء مـن القطاع الخـاص، لا يعـتـدون بكفـاءة مـعظم مـوظفى الإدارة العليا بالقطاع العـام - على أسـاس أن بعضـهـا جاء بالوسـاطات والعلاقات الشخصية والأقدميات الحتمية!

وعندمـا اغتم حسـين البلتـاجى لسوء الحظ الذى يلازمه مـبكرا، فى وظيفة «المدير العام» منذ أول لحظة.

أفصحت بنت أنوسة عن - عبقريتها - وقالت له:

- إن ما نستهدفه أن يحمل - حسونتى - لقب «المدير العام» فى بطاقـتـه العـائليـة وفى جـواز السـفـر.. ثم بعـد ذلك لا يعى همـا - للوظيفة الكبيرة.. هنا أو فى الخارج..!

بعـدها عـاد - حسـين البلتـاجى - لحـالـة من ابتـهـاجـه المؤقت، المحفوف بالأحلام العظيمة..!

خميس..
وفتحية..
والبَخ!

«أبو لمعة» اسم شائع، كعنوان صريح عن الكذب الفاضح الخيالى غير المتناسق، وغير المؤذى.. ذلك الكذب الهائل الذى يقول لحسنى النية «من فضلكم لا تصدقونى وإلا اتهمتم بالغفلة والعبط!».

وعمال المصنع - فى شركتنا - أطلقوا على «خميس أحمد عبد الراضى» اسم - «أبو لمعة» - إذ إنه كان يعيش بينهم على أكاذيب هائلة لا أرجل لها ولا رأس، فيبعث فى الزملاء موجات من الضحك، منها، وعليه!

وكعادة العاملين فى المصنع، تناسوا اسمه - «خميس» - الحقيقى ولم يعد أحد يناديه إلا «أبو لمعة».

و«أبو لمعة» رضخ لمشيئة الجماعة واستقبل ما اتفقوا عليه فى شىء من الرضى بالمقسوم.

وأبو لمعة - أثناء اجتيازه لمرحلة الشباب ونشاطه المغالى فى الأكاذيب، أفضت به هذه المرحلة للزواج من «فتحية» بنت جمعة المغربى، عسكرى السواحل الذى حصل على شقة فى المساكن الاقتصادية بالمفروزة. ولما ماتت أم فتحية - ولحق بها جمعة المغربى. آلت الشقة إلى ابنته الوحيدة فتحية بحكم الإقامة الدائمة. ولأن الشقة باسم الزوجة فى قانون الأحوال الشخصية وخاصة الزوجة التى أنجبت بسيمة وصلاح وفؤاد فى ستة أعوام..

فقد صار أبو لمعة - يشترى رأسه، ويسلم لزوجته مرتبه الشهرى كاملا. يقبضه من صراف الشركة، ويبقى قابضا عليه، يحميه من نشالين الأتوبيسات والترماوات.. حتى يسلمه لفتحية، فيشعر بالراحة وإزاحة الكابوس عن صدره..!

ولكن فتحية التى تعلمت فى المدرسة الابتدائية.. كيف تفك الخط.. كانت من الذكاء أن تعلم بأن خميس يلقط رزقه فى المصنع.. وأنه يخفى عنها أجور الساعات الإضافية.. والحوافز، التى تصرف أحيانا.. وهى من ناحيتها صارت لا تهتم بإفطاره على أساس أنها نائمة فى ساعة الصباح التى يحلو فيها النوم.. بعد

سهرة أمام التليفزيون الأبيض والأسود - والذى لا ينتهى إرساله إلا فى الفجر..!

ولم تعد تهتم بكسوته، ومصاريف يومه بالشركة. فى مقابل ما يتحصل عليه.. وخميس ما دام ساكتا. فهو يأتى بما ينفقه على نفسه، بعيدا عن الراتب الأساسى.. ويتأكد لها ذلك بالإغارات التفتيشية التى تقوم بها على جيوب بنطلونه. المعلق مع القميص فى مشجب خلف باب حجرة النوم..

وفيها تحصل على بعض النقود الصغيرة.. وتترك له بعضها..

* * * *

وفيما يبدو.. تمكنت فتحية - أم بسيمة - من وضع خميس (أبولمعة) على أرض الواقع الصلبة.. بل إنها زرعته على هذه الأرض باحتياجات أولادها واحتياجاتها، ولا تنى تذكره بأنها أعفته من أجره الشقق الغالية بالأجرة التافهة.. التى تدفع فى شقتها.. والتى أشبه بالتمليك.. لكن محاولات فتحية أن تعيش حياة الطبقة الوسطى.. بكل عاداتها.. جعلت خميس يعيش الحرمان وعلى الكفاف.. وقد اختلط الضرورى بالثانوى مما أفقد أبو لمعة ذلك الخيال المحلق من الأكاذيب المبهرة اللذيذة التى كان يطلقها فيتسلى بها العمال زملاؤه.. والتى إذا سمعها - الخواجة بيجو نفسه.. سيتكلم باللاوندى وينطق بالشهادتين الإسلاميتين!

وبسبب إدارة فتحية لبيتها ورأسها برأس جيرانها.. جعلت أحاديث أبولمعة ثقيلة الظل.. فأفقدته مكانته بين العمال.. الذى

لكل واحد منهم موهبة ما.. والصدق الذى يدب على أرض الواقع.. صار يضطهد الخيال الذى أتى بالقفشة والنكتة فى مجال من روقان البال الذى افتقده خميس.. بسبب ضغوط الحياة التى تقودها فتحية فى سكك المطبات والنقر، متشبهة بمن يعيشون حولها فى المساكن الاقتصادية، وقد صار فيهم مديرى الإدارات وصولات البوليس.. بل والناس الكسيبة من المهنيين الذين حملوا لقب الباشا و«المهندس» الانفتاحى..!

وخميس الطيب الذى عاش حياته يتيما له جرأة العمال المكتسبة وهم يخوضون فى تناول رؤوس المثلث الرهيب.. وكأنهم يمضغون لبانه معطرة بالنعناع. دون شعورهم بالإثم..

الجنس الفاضح.. والدين.. والسياسة..

يتحدثون فيها.. بشىء من الحرية، التى لا تتوفر للإنجليز فى برلمانهم المشهور.. أو حتى هايد باركهم المتحرر..!

وانقلب الحال - فإذا حاول «أبو لمعة» الذى صار اسمه على غير مسمى، أن يقول شيئا.. مما يقوله العمال زملاؤه.. ويمضغونه بلذة - يرتبك ولا يدرى كيف ينهى حكايته.. التى يواصل السير فيها.. على غير هدى مما يثيرهم..

فيستخدمون أذرعهم وكفوفهم فى وقفه، ولا يتورع أحدهم فى استخدام الثقيل من الهزر.. يضربه على قفاه.. وتختفى رأسه بين منكبيه وقد صار خميس بينهم بلا موهبة، أسقطوه من حساباتهم.. ولم يعد أحد يهتم بوجوده أو غيابه.. نفس ما يحدث له فى البيت.. يحدث له فى المصنع.. ولا أحد يشعر بأحاسيس خميس العميقة!!

وشعور خميس بأنه صار شخصا مهمشا.. عمق الحزن بداخله.. وتدخل فى تقطيع الجمل والكلمات فى ذهنه، بل وألصق بعض الحروف فى حلقه.. مما جعل بعض العمال يسمونه.. خميس العبيط..

ولولا تمكن واتساع شهرة اسم «أبو لمعة».. لغطى الاسم الجديد عليه..!

لكن خميس، كان يريد أن يثبت.. لزوجته فتحية التى لا تعرف كيف انتقل إليها اسمه الجديد.. ولجماعة العمل.. بأنه سيبقى «خميس».. الذى كان محل اهتمامهم.. يتحلقون حوله ولا أحد يجرؤ على مقاطعته، حتى يفرغ من حكايته.. التى يحكيها..!

ويصل بها إلى الذروة التى تفجر الآهات والضحكات..!

* * * *

العمال فى المصنع يتجمعون بالساعات الطوال، يوميا مع بعضهم يعيشون كزملاء. أكثر مما يعيشون مع أهاليهم. ومعظم العمال يعملون منذ كانوا صبية، ويستمرون فى العمل حتى الإحالة إلى «المعاش» ومن لا يفضفض للجماعة - فإنه يختار من بين الزملاء من يتخطى مرتبة الزمالة بشرطة واحدة.. ليسفح عنده أسراره ويكون له بمثابة - الطبيب النفسى.. الذى قد ينحصر كل عمله فى الاستماع.. فتخف المعاناة.. وتهدأ النفس المعذبة..!

وفى هذر العمال الذى تعجز فيه الألسنة عن العمل. تقوم الأيدى والأرجل بكل العمل. كان بعضهم يجد فى (قفا) أبو لمعة مكانا مناسبا، ليدق عليه. فيما يطلقون عليه.. الهذر بين الصحاب والذى لا يفسد العلاقات بل يعمقها..!!

وإذا تلقى - أبو لمعة - هذرا ثقيلا من هذا النوع، يقوم به شخص على استعداد أن يتمادى.. يحاول السيطرة على انزعاجه، قد يضحك مع من يضحكون، حتى لا يكون فريسة لكفوف أخرى.. تتحداه.. وإذا احتج احتجاجات الشكوى، والتهديد، بأنه سيرفع الأمر لمدير المصنع.. لا يعبأون بتهديداته التى لن ينفذها.. بل يسبون أمامه - المدير ابن الفران! وأبو لمعة عندما صار لا يدافع عن قفاه.. ويلجأ إلى ذلك السكون المهين، ولا يتفاعل مع حوار الأيدى والأرجل والأجساد..

كف المشاكسون حتى عن مشاكسته.. ودق عنقه بكفوفهم.. وكأن ذلك إعلانا بإزالة بقايا الصلة الوثيقة ومكانته بينهم..!

لقد أدخلوه - قسرا - إلى حالة التجاهل، والتغاضى، وشعر - خميس أبو لمعة - بحالة اليتم الحقيقى، وأنه لم يعد يعيش بين زملائه.. حياتهم.. تلك الحياة المشبعة التى تغنيه عن حياته المنزلية.. وقد صار بالنسبة لفتحية وأولادها - «الحمار» - الذى يحمل الأثقال، ويخافون على أثقالهم.. أكثر من ظهره الذى بات يشعر بانقسامه وانهراسه تحت وطأة الأثقال المهينة!

ولعل خميس أبو لمعة كان يريد إعادة مكانته بين زملاء العمل - عندما بدأ يشحذ خياله من جديد ويستخدم أكاذيب - يقولها وهو يتلبس حالة من الوجوم والحزن فتكون أقرب إلى الصدق..

أما وقد فقد خياله المجنح - فقد استخدم الأسلوب التقريرى الذى ينقل الواقع دون إضافات!

يعتصر عينيه حتى يصيبهما الاحمرار ويشاهد العمال فيهما بقايا البكاء.. يتعمد بأن يجففها بمنديل كبير كى يثير التساؤلات..!

«ماذا حدث يا أبو لمعة؟.. فتحية طردتك من شقتها؟

وهنا يأخذ بألباب مستمعيه - عندما يخبرهم بنبأ سقوط بيت قديم على سكانه فى كرموز.. أو كوم الشقافة وموت زميل كان يعمل بينهم فى فترة ما.. وإصابة زميل آخر من الذين يعملون فى فروع البيع.. أو المخازن البعيدة..».

ثم يعيد تجفيف عينيه.. فيظهر التأثر على وجوه من يتعرفون على الزميلين..

ثم يأخذ فى وصف ما حدث.. أثناء خروج الجثث من تحت الأنقاض.. ويصور المشهد مختلطا بين الناس وأكوام الحجارة والغبار والصراخ والعويل.. ومن كان خارج المنزل فنجى بأعجوبة.. ومن كان يزور قريبا له فمات بالصدفة.. ويصعد بدهشتهم إلى الذروة.. يعتصر قلوبهم إلى آخر نقطة أسى.. ويلاحقونه، لعدة أيام بالسؤال عن الحادث.. وعما جرى.. ويواصل - تزويدهم بالجديد

دائمـا.. بل أنـه يتـابع حـال الزمـيل الـذى كسـرت سـاقـه.. وأصـيب بالعمى.. وصار يعالج فى عيادات التأمين الصحى. تسحبه ابنته من يده، وهو بعصاه.. يتحسس بها الطريق «ويصف كيف اقترب منه» وكيف كلمه فلم يعرفه.. وإذا عرفه سحت دموعه بغزارة!

وفى كل الأحوال - كان - خميس أبو لمعة - يحقق ما يصبوا إليه..

عاد مرة أخرى محل اهتمام الزملاء.. فعاش الدور.. حتى صار مهموما بما يحكيه - تسأله فتحية عن سبب حزنه.. وعدم ملاعبته لأطفاله.. يحكى لها عن تفاصيل المأساة التى أسفرت عن وفاة أحد الزملاء.. وعرج وعمى زميل آخر..!

ومع أن خـمـيس أبو لمعـة هجـر الكذب الفكاهى إلى الكذب المأسوى، ويتابع صنع الإضافات يوميا.. فلا أحد حاول أن يتحقق من أكاذيبه..

وكما صدقه الناس، صدق نفسه.. حتى أنه عندما التقى صدفة بمن ادعى أنه أصيب بالعرج والعمى.. أصابته الدهشة.. وسأله:

- كيف تم علاجك.. ومتى؟!

وعندما اكتشف زملاء العمل أنه كان يلعب بعواطفهم بالأكاذيب المأساوية.. بعضهم ضحك.. وبعضهم - تعرض له فى غضب.. وأعادوه قسرا، إلى حالة التصاق الحروف وتقطيع الكلمات فى حلقه.. ممسوسا بالبله والعبط.. وصار لا أحد يستمع إلى ما يقوله

«خميس» حتى لو كان ينقل إليهم طرفا من مأساته الشخصية مع فتحية وإحساسه - بأن لا لزوم له فى الحياة..

وبالفعل - صار الموت.. يشغله.. ويفكر فيه، وارتاد المساجد.. يجلس ويتأمل فى معانى القرآن والأحاديث النبوية.. ويسأل عن «الآخرة».. و«الحساب»

وإن كان من يضع حدا لحياته يموت كافرا؟

ويتعرف على الملائكة الذين يكتبون الحسنات.. والذين يكتبون السيئات كمن يتعرف على (مدينة) سيرحل إليها مهاجرا.. يكتنفه شعور من يقطع أواصر.. ويتطلع لوصلها فى أماكن أخرى..!

ولا يريد أن يترك أحدا بدون وداع، اشتاق لأن يودع زوجة أبيه..

الست نظلة.. أم إبراهيم.. التى تكلفت به فى أحضانها، بعد وفاة أمه بحمى النفاس.. وكذلك ابنها إبراهيم البقال.. الذى يحسبها «بالسحتوت» فلا يغادر دكانه إلا لماما - وهو شخص معدوم الطموح.. يرضى بمكاسب الملاليم. والقروش القليلة، التى لا تدفع به أعلى من حياة عامل بدون حوافز وبنص إنتاج..!

والست نظلة.. استقبلته فى دهشة.. جلس خميس صامتا أمامها حتى حضر ابنها إبراهيم - واندهش إبراهيم إذ وجده جالسا على الكنبة فى الصالة ينتظره واعتقد أنه جاء.. يشكو من فتحية.. أو جاء لينقل على رأسهما مصيبة لا يقدر على حملها وحده.. لكن خميس.. جلس قليلا وشرب نصف كوب الشاى..

وقام.. وغادر مكسنهما غير منتبه لتكرار دعوتهما له بالزيارة.. أو لتلميحات (أمه) نظلة.. التى كانت تبين له أن سبب انقطاعها عن زيارة بيته، ورؤية أولاده.. هى «السوسة» فتحية أم بسيمة.. وأنها ترسل ليلاتى - حاسرة الرأس - بفيض من الدعاء عليها.. فلا يؤثر فيها!

* * * *

وقبل أن يأخذ خميس الراضى.. طريقه إلى الآخرة.. وقد اختار لنفسه.. طريقة التخدير الشديد.. بأن يتناول مجموعة من شرائط المسكنات التى تسكنه الآخرة فى دقائق معدودات، انفتح أمامه باب الأمل على مصراعيه، واندفع ضوء النهار ساطعا فى حياته الكابية الكئيبة.. إذ أعلنت الشركة.. عن قبول طلبات الدفعة الأولى من العاملين الذين يرغبون فى - الطلوع - إلى المعاش المبكر.. واقترنت الدعوة بالمكافأة السخية والمعاش الشهرى المنتظم..

* * * *

خميس.. الساذج العبيط.. وقع على استمارة الخروج إلى المعاش المبكر كمن يوقع على صك بالبقاء فى الدنيا إلى يوم الوفاة الربانية المقررة فى اللوح المحفوظ.. وقد اكتنفته حالة من الابتهاج.. عكس الذين وقعوا معه وتلبستهم مشاعر الحزن والخوف غير مصدقين أن الحكومة.. ستمنح مكافآت سخية لمن يخرج إلى المعاش المبكر.. تتراوح بين العشرين ألف جنيه والخمسة والثلاثين ألف جنيه.. مع صرف المعاش الشهرى المعتاد عن سنوات الخدمة..!

وشركتنا - احتضنت مئات العمال - الذى تصادف وجودهم على قوة عمل المصانع الصغيرة، التى ضمت لها بالقرارات الفوقية. وقامت بتثبيتهم على درجات، وصار يعاملونهم كموظفى الدولة ولهم كافة الحقوق التى تقررت فى قانون - القطاع العام - من مكافآت وحوافز وأرباح.. وعلاوات.. وتقارير سنوية سرية.. وعدد كبير من هذه العمالة.. فى سوق العمالة الحقيقية لا تساوى قلامة ظفر..!

وكان الأجدر بأمثال «خميس أبو لمعة» - عدم التوقيع على استمارة الخروج إلى المعاش المبكر وهو فى الثانية والأربعين.. لكنه يبدو فى السابعة والخمسين ولم يستخدم - يوما - عقله ليتعلم كيف يصير عاملا فنيا وصار يعيش على الغريزة كالنعاج داخل عنابر الإنتاج..

فماذا سيفعل بالمعاش المبكر؟.. وأين سيمضى وقته والدولة التى كانت تقوم بدور صاحب الملجأ.. صارت منعطفه إلى الطريق الشمالى الذى فيه من يملك قرش لا يساوى إلا قرش.. بمعنى أنك «لو ملكت مليونا.. صرت مليونيرا..!

وأبو لمعة مر بالإجراءات.. أخلى الطرف واستلم الشيك.. وكان فى نفس الصباح، عندما سألته فتحية «إن كان سيتسلم شيك المكافأة..».

قال لها: إن ذلك سيتم.. فى نهاية الأسبوع - فهدأت وعادت تغط فى نومها.. تتركه يرتدى ملابسه، ويطلع من بيته على ريق النوم.. قاصدا.. المصنع..

واستلم خميس أحمد الراضى.. الشيك وصرف من البنك ثلاثين ألف جنيه.. وقليل من - الفكة - التى عزلها جانبا.

والعمال فى المطبعة أقاموا بعمل أكياس من الورق المقوى جاء مثلهم بكيس.. ودفس فيه الثلاثين باكو.. وعندما تلفت الزملاء بحثا عنه ليحصلوا منه على «وهبة» - يدفعونها للموظف الذى قام لهم بالتسهيلات.. وجدوا أن خميس العبيط اختفى..

وقال أحدهم -- ستجدونه الآن.. قد طار إلى «فتحية».. يسلمها المكافأة.. ويظل نظيفا كالصينى بعد غسيله..!

* * * *

صرف خميس الراضى.. مبلغ المكافأة فى حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الاثنين.. واختفى، وعاد خميس إلى الظهور فى مساء نفس اليوم.. كانت الساعة تدق الثامنة والنصف مساء.. لسماع فتحية موسيقى مقدمة نشرة الأخبار فى الراديو..

وفتحية قالت «- يا دهوتى.. أين ذهبت يا خميس بالفلوس» وقد علمت من زميل لخميس فى الحتة - أنه صرف المكافأة واختفى من البنك.. ولا أحد من زملائه يعرف إلى أين ذهب.. تضاعف قلقها.. على الفلوس..!

فى هذا الوقت بالذات.. وأعصابها تشيط.. وتطلع عصبيتها فى أولادها.. حتى تم إطعامهم.. فسكتوا، وأخذوا يراقبونها وهى تتحرك من الباب إلى الشباك..

فى هذه اللحظة.. دق الجرس.. نفس الرنة المتقطعة التى يفعلها خميس.. قفزت فتحية وفتحت الباب.. ودخل خميس كالعادة.. لا شىء تبدل فيه، شعره مغبر وغير متساو.. وملابسه كما هى.. ملابس قديمة.. لكنها نظيفة.. والحذاء فى قدمه منطفئ، دخل بلا سلام ولا كلام.. ولا كأنه قبض أو صرف..

مسحته فتحية بعينها لعلها تشاهد شيئا يمسك به.. اعتادت منه كلما حصل على فلوس - قبض على الفلوس حتى لو كانت فى جيْبه - ويسلمها لها (على داير مليم) ولم تلحظ أى انتفاخات على البطن، أو الظهر، أو حتى تحت ساعديه.. يمكن أن يخبئ الفلوس فيها.. والجورب الذى يخفى فيه علبه السجائر من العمال المدخنين.. قبل أن ينقطع عنها تماما لا يتحمل الثلاثين باكو بأية حال.. وكانت فتحية قد كظمت غيظها.. لأنه أخفى عنها موعد الصرف.. ولكنها عزت ذلك إلى الارتباكات التى تحدث عادة فى مثل هذه الحالات.. لا يمكن أن يفعل (خميس) شيئا من هذا القبيل ويدبره.. وهى تعيش معه وموقعها فوق كاهله.. كاتمة على أنفاسه وزوره فى قبضتها.. وتستطيع أن تلقى به إلى الشارع. ثم تحصل على أربعة أخماس راتبه بصفتها حاضنة لأولاده..

وفى نفس الوقت لا يستطيع خميس أن يطردها من شقتها.. إرثها من والدها..!

وآثرت فتحية أن تتريث حتى يتكلم خميس من تلقاء نفسه..

بينما الدخان الذى يخرج من منافذها.. كثيفا لا يجعلها ترى ماذا يفعل.. كان يخلع ملابسه فى هدوء ويعلقها فى المسمار خلف باب حجرة النوم.. وكان قد ارتدى بيجامته الكستور التموينى، والتى صارت خفيفة وكأنها خيطت من الشاش.. وجلس على الطبلية ليتناول وجبته الرئيسية التى تربطه بالمنزل مع الكنبة التى ينام عليها فى الصالة.. وغالبا كان يتناول طعامه وحده جلست ابنته بسيمة إلى جانبه، فنظرت فتحية إلى البنت بتلك النظرة التى تستدير فيها عينيها.. فقامت البنت.. وجلست بجانبها على الكنبة..

وقال خميس وهو يمضغ الطعام.. ملعقة من طبيخ الكوسة على الأرز بالشعرية.. بدون لحم..

- أنا صرفت المكافأة..

وبشدة أمسكت فتحية نفسها عن أن تصرخ فى وجهه وتقول له:

- أعرف أنك صرفت المكافأة يا خويا.. ثلاثين ألف.. لكن أين ذهبت بهم.. ولماذا لم تأت إلى البيت يا خميس منذ الساعة الثانية ظهرا.. الساعة الآن داخلة على التاسعة.. ثم أين الفلوس.. ما يهمنى الفلوس.. «أين الفلوس يا خميس» العبارة الأخيرة قالتها من بين أسنانها وفى شىء من ضبط النفس وتأجيل الانفجار، فأعاد قوله:

- صرفت ثلاثين ألف جنيه يا فتحية..

لاذت بالصمت.. فهو لم يجب على سؤالها «أين الفلوس يا خميس» كررت الجملة فى شىء من الحدة، لكن خميس أخذ يضرب بالملعقة فى قاع الطبق فيصدر صوت اصطكاك. ولم يجب على سؤالها المتكرر.. سألته فتحية فى صوت مبحوح:

- أودعتهم فى البنك؟

لم يرد خميس واستمر فى المضغ.. واستدار يعاكس بسيمة.. ثم يطلب منها.. كوب ماء..

- ازقينى يا بسيمة.. ازقينى وخدى جنيه..

فتحية قامت منتورة، اتجه بصره نحو الثلاجة الإيديال القديمة.. أعتقد أنها ستأتى إليه بزجاجة الماء البلاستيك، لكنها دخلت أوضة النوم وأخذت تفتش فى ملابسه وجيوبه.. لم تعثر على شىء غير عادى.. إلا ستة جنيهات وبضعة نقود صغيرة.. الجنيهات الستة لم يكن لهم وجود فى جيبه عند خروجه إلى العمل فى الصباح الباكر، ولا حتى ورقة تثبت بأنه أودع المكافأة فى بنك من البنوك..

لقد ذهبت إلى زوجة أبيه «نظلة».. وتقابل مع ابنها «إبراهيم».. أيكونا قد أقنعاه بشىء من خلف ظهرها.. وعادت وهبدت مقعدتها على منتصف الكنبة وقالت: الفلوس يا خميس..؟

وخميس كان قد فرغ من الطعام.. توجه إلى الحمام وغسل فمه ويديه ووجهه.. وعاد بيديه الفوطة الصغيرة المتهرئة يجفف بها الماء.. وقال:

- توحة.. يا أم بسيمة.. لا تتعبى نفسك، الفلوس صرفتها.. لكنها ليست معى الآن، عليك أن تهدئى..

وذكرته توحة بعياله.. ومطالبهم ومستقبلهم وهدأت، وأخذت تستميله فى شىء من ضبط النفس.. ليس أمامها إلا أن تتمسك بضبط النفس..

قال خميس:

- قومى اعملى الشاى..

وكادت أن تحزن وتقسم بأنها لن تعمل له «سم هارى» لكنها قامت وعملت الشاى، سريعا، على عين البوتاجاز الكبيرة. بطريقة الشاى الكشرى.. ولكنها لم تكف عن نصحه والضغط عليه ليقر.. حتى وهى فى المطبخ تسأله «أين ذهبت بالنقود..» و«من ضمن الأسئلة..» سألته:

إن كان قد ذهب بهم إلى «نظلة» أم إبراهيم، فأنكر.. وهى تعرفه إذا ما كذب أو صدق، إنكاره كان صادقا، وقالت:

- طيب.. يا خميس ريح بالى وقل لى أين خبأت الثلاثين ألف جنيه.. أحسن يكون أحدهم ضحك عليك.. واستعبطك.

- خميس ضحك.. وقال لها وهو يشرب من كوب الشاى الساخن:

- لمعلوماتك بقى يا توحة.. أنا استعبط بلد بحالها، أنا أعمل عبيط وقت ما أنا عاوز.. تفتكرى أنت كنت تقبلى تتزوجى بواحد عبيط.. لا يمكن بتاتا.. أنا أعرفك.. لو كان زوجك عبيطًا لتركتيه

من زمن طويل. واضطرت توحة أن تنقل موقفها للناحية التى لا تغضبه.. ولكنها لما كررت السؤال بحثا عن الإجابة التى تتمنى سماعها سمعته يقول:

- الفلوس بَحّ يا توحة..!

دبت على صدرها وصاحت.. وكأنها تدعو الجيران للتدخل السريع وقد أصاب الإنهاك حمارها:

- ماذا تعنى ببَحّ يا خميس؟

قال خميس الذى لم يعد خميس أبو لمعة، أو خميس العبيط، أو الذى يلطع على قفاه وينكمش:

- يعنى طاروا، خلاص يا توحة طاروا.

وتوحة كمن مات لها ميت.. أعلنت عنه بعدة صرخات حادة يسمعها الذى يسكن فى آخر المساكن..

وخميس يتحدث عن - خطته القادمة - وأنه قرر أن يشتغل عند عم حسين البقال.. يوصل البضاعة للمنازل على التروسيكل «أجيب مصاريفى يا توحة.. وانت تأخذى معاش الشهر كله..».

وحين بدأ الطرق على باب الشقة - من الجيران - كان خميس يتحدث عن حلمه.. بأن يعمل على (فيسبا) - معلقة فى ظهرها شنطة.. ويوصل البيتزا هُت َإلى المنازل - وتوحة تواصل الصراخ والعويل، فتحت الباب، ليتدخل الجيران، ويرغموا خميس على الاعتراف أين ذهبت الفلوس.. وهجمت عليه.. تريد أن تلتحم به

لكن الجيران حالوا دون ذلك.. وخميس كان يدرك أن فتحية لم تكن جادة فى مسألة الالتحام به.. والحوار يكون بالأيدى، فهى لم تفعل ذلك إلا بعد أن فتحت باب الشقة وتدفق الجيران.. نساء ورجال وفى أذيالهم عيالهم، واختلط الحابل بالنابل فى صالة الشقة.. وازداد الكلام وازدادت حدته.. وانسل خميس إلى المطبخ.. وصار يلقم من العيش ويأكل.. فهو إذا ما اجتازته العصبية يشعر بالجوع.. كما أنه فيما يبدو انصدت نفسه فلم يأكل بصورة متمهلة.. ولما هدأت الأصوات وتقدمت منه السيدة زوجة صاحب البيت.. تعتقد أن لها دلالا عليهما كزوجين.. وسألته عن فلوس المكافأة.. استكمل خميس شرب بقايا كوب الشاى وقال (بَحّ) وخميس لا يعرف بأن (بَحّ) كلمة فرعونية بمعنى راحت فى الهواء.. ولكن كل من سمعوا (بَحّ) عرفوا أن الفلوس تبخرت.. أو اختفت.. وكل ما كان يهم الذين استقصوا عن مقدارها وأصابهم الذهول.. وسمعوه يقول بَحّ كانوا يلطمون خدودهم - أو يضربون صدورهم.. قائلين:

«يا خرابى.. بَحّ إزاى يا خميس دول ثلاثين ألف جنيه؟!».

وأخيرا.. فرغ خميس من كوب الشاى.. وقضى على الرغيف الذى يقتطع منه لقمات متوالية.. وبدأ يتكلم، وتمكن من إسكات الجميع عندما قال لهم:

يا جماعة أنا أدفع لزوجتى كل شهر أكثر من ثلاثمائة جنيه.. يعنى أكثر من عشرة جنيهات يوميا.. ولا أفطر فى البيت.. فقط أتغدى وأستكمل غذائى عيشا حافا كما ترون..!

صاح عدد من الجيران:

- عداك العيب يا سى خميس.. لكن أنت طلعت إلى المعاش من أين ستأتى بالثلاثمائة جنيه..

ركب على كلامهم وقال:

- أنا أضمن لزوجتى وأولادى.. العشرة جنيه كل يوم.. يعنى ثلاثمائة جنيه فى الشهر.. هل هذا بطال..؟

قال عدد من الجيران:

- أبدا.. أبدا. هذا عال العال..

فوقف خميس عند باب الشقة، فتحه، وقال:

- إذن.. نجىء لكم فى الأفراح إن شاء الله.. اتفضلوا.. مع السلامة..

فخرج الجميع.. وبقيت السيدة السمينة صاحبة الدلال، وبقى خميس عند الباب ينتظر خروجها..

فقالت: لخميس: و«المكافأة.. مكافأة المعاش المبكر يا خميس الثلاثين ألف باكو.. أين ذهبت الفلوس يا خميس؟

انتظر حتى خرجت من الباب بجنبها وقال.. وهو يغلق الباب «بَحّ».

* * * *

الجيران مهما كانوا.. جيرانا.. كل ما يهمهم معرفته.. هو أسباب النزاع، ومقارنته بنزاعات تحدث بينهم، حتى تهدأ نفوسهم تحت مقولة.. من شاف بلاوى الناس، هانت عليه بلوته - وكثيرا من

الجيران يحسدون فتحية بأن زوجها - ليس بتاع قهاوى ولا هاوى قعدات حشيش.. ولا بتاع بصبصة ونسوان.. كما أنه لا يضربها.. بل أن فتحية هى التى تتحرش به، وتكاد تخيفه بأنها ستضربه. ومع ذلك فخميس.. رجل يملأ هدومه وأمثاله يكون لهم شأن فى المستطيل الخميسى الذى يخفف آلام وبؤس الزواج الدائم..!

والجيران بعد أن عرفوا.. ما أثارهم بالصراخ والعويل.. انتهت مهمة الجيران.. وانفضت السويقة. وكل منهم، حتى قبيل أن يفتح لهم خميس الباب، كانوا يفكرون فيما تركوه وراءهم من مشاغل..

وانغلق باب الشقة على فتحية وخميس، والتصرف الأخير الذى يكيدها.. كيف فكر فيه؟.. وكيف نفذه؟ إنها تعرف خميس جيدا.. لا أحد يمكن أن يخدعه بسهولة - قد يبدو أحيانا جبانا أو يلوذ بالجانب الذى يقف فيه المظاليم.

ولكن ها هو.. بدأ يلقمّ من رغيف آخر.. الكوسة والأرز.. لا يشبعانه.. إنها أكلة أطفال رضع.. إذا ما كان الطبيخ بدون لحم..

لكن فتحية لن تستطيع أن تنام ليلتها إلا إذا عرفت.. أين ذهب خميس بالفلوس.. وهى ترى أن الفلوس من حقها، وحق أولادها..

وثمة خطط بديلة.. ستعمل على استخدامها.. خطة تلو الأخرى حتى تصل إلى قرار خميس.. وتستدل على ما أخفاه..

* * * *

قامت فتحية وارتدت ملابسها سريعا، ووقفت عند باب الشقة بيدها.. (البُك) فيه المفتاح وبعض النقود الفكة. لعلها تشترى شيئا.. ولكنها قالت:

- أنا لابد وأشوف حل يا خميس.. سأحضر لك (أمك) نظلة وأخوك إبراهيم..

وابتسم خميس.. لأول مرة تقول عن نظلة إنها أمه - وعن إبراهيم البقال.. أنه أخيه.. وهى تعلم حقيقتهما.. وقبل أن يعلق.. كانت قد خرجت وأغلقت خلفها باب الشقة.. وقالت له بسيمة ابنته:

- بابا تصبح على خير..

- قال لها: تصبحى على خير.

قالت له البنت وهى تقف عند باب الغرفة..

- أنا أعرف.. أنت وديت الفلوس فين؟!

وعندما انتبه لها وأخذ يتأمل قالت بسيمة: «بح».

ودخلت غرفتها.. ونامت.. أما خميس فقد قضى على الرغيف الثانى.. مع قطع من مخلل اللفت والخيار!

* * * *

دخلت أمه الحنون - نظلة - وأخيه الحنون - إبراهيم، شقة المساكن فى صحبة زوجته.. ورحب بهما، وكانت (أمه) نظلة.. سعيدة إذ تلتقى به مرتين فى وقت قصير.. وسعيدة أكثر أن فتحية

المفترية – التى قطعت رجلهما – هى التى جاءت إليها تستعطفها أن يقوما معا – بإقناع خميس. بأن يكشف عن الفلوس التى قبضها.. وأنها تخشى أن يحتال عليه أحد المستثمرين الذين يجعلون ماء البحر طحينة..

لكن نظلة أكدت بأن (ابنها) خميس.. واعى.. ولا أحد سيضحك عليه.. ومع ذلك ارتدت ملابسها.. وانعطفت على الدكان وسحبت منه ابنها إبراهيم.. واستقبلهما خميس بالأحضان..

وكان من خطة فتحية.. أن تترك خميس وأهله سويا يتصارحون بما لا يريد أن يفصح لها به، فهى مهما كانت «غريبة» أنها مجرد زوجة يمكن أن يجئ لها بضرة.. والفلوس معه تجعل.. أفضلها بنت فى الحتة.. تقبل أن تتزوج به، والناس لن يعد يعنيهم شىء أكثر من الفلوس.. وثلاثين ألف جنيه مبلغ يدير رأس جميع سكان المساكن، والأحياء المجاورة من الغلابة..!

وقامت فتحية لتعمل لضيوفها الشاى.. وقالت لخميس وهى تفرش على وجهها ابتسامة:

– تشرب شاى تانى يا خميس؟

وخميس هز رأسه موافقا.

ووضعت فتحية براد الشاى على عين البوتاجاز، ووقفت بالقرب من الصالة.. خلف ستارة المطبخ.. تتنصت على حديث نظلة وتعليقات إبراهيم البقال.. لكن خميس لم يتكلم فى أى شىء عن الفلوس..

كما أن زوجة أبيه.. الثرثارة.. وابنها البقال المزيت.. كانا يتكلمان بعيدا عما أحضرتهما من أجله.. وأمسكت فتحية نفسها عن الاندفاع إليهما لحثهما على سؤاله، السؤال المحدد..

اضطرت أن تعود إلى المطبخ وتقف أمام الصنبور تفتحه وتخبط الأكواب فى الصينية.. حتى يطمئنوا بأنها تعمل فى المطبخ، ثم عادت سريعا إلى مكانها.. على طراطيف أصابع أقدامها وسمعت نظلة وهى تسأل خميس:

- صرفت فلوس المكافأة يا خميس؟

وقال خميس دون تردد:

- صرفتها اليوم.. الساعة اتنين..

وسأله إبراهيم البقال:

- وأين ذهبت بالفلوس يا خميس من الساعة اتنين للساعة الثامنة والنصف..

اتسعت عيون فتحية.. وفغرت فاها، وكأنها ستستقبل الإجابة بفمها.. ولكن الصمت ساد.. ولم ينطق الخبيث خميس. لعله تكلم بالإشارة..

أو لعل زوجة أبيه تنبهت بأن الهدوء يسود المطبخ ولا صوت لفتحية فيه. اضطرت فتحية أن تعود وتحدث جلبة فى المطبخ.. وترجع سريعا إلى مكانها وراء الستارة..

وبراد الشاى صار غطاؤه يبكبك.. والدخان يتصاعد من بوزه.. اضطرت أن تعود مرة أخرى على أطراف أقدامها.. تطفئ تحته نار عين البوتاجاز.. وتلجأ إلى الستارة تتنصت.. وإذا بهم يتحدثون فى مواضيع شتى، وقد شرع يعاتبها لانقطاعها عنه، واستخسرت فتحية.. الشاى الذى ستقدمه لهم، وتمنت لو أن باستطاعتها وضع السم للثلاثة ليموتوا وترتاح منهم.. ثم ارتدت إلى مشاعرها الحقيقية ووجدت أن خميس لا يستاهل الموت، لعل أحدهم.. لعب له فى صواميل عقله.. أنه سريعا ما سيعود إليها.. ويمنحها سره.. اعتاد أن يسلم قياده.. أن يكون طفلها الرابع.. وهو الآن - يخفى الثلاثين ألفا.. لعل ضخامة المبلغ.. وأكبر مبلغ فى حياته احتكم عليه.. عندما أوصل لها (الجمعية) التى وافقت أن يشترك فيها مع عمال المصنع - وجاء الدور الثانى عشر - وقبضها، وبقى محتفظا بالفلوس فى ظرف مغلق.. حتى فتح المظروف أمامها، تسعمائة وخمسين جنيها..

إذا ما دفع (القسط) الواجب عليه - سيكون المبلغ ألف جنيه - ويومها بقى مذهولا.. يتأمل الفلوس ويحصيها.. ثم أسكنهم فى حجرها وانصرف لحاله.. لعل المبلغ الكبير الذى فى حوزته الآن جعله.. يحتفظ به لفترة.. ثم يأتى به فى النهاية ويضعه - بكامله - فى حجرها.. خميس صار يساوى كثيرا الآن.. وصار يطلب طلبات، ولابد وأن تثبت له أنها زوجته المطيعة، تركت الشاى يخرط فى البراد.. ومضت إلى حجرة النوم.. غيرت ثوب البيت المتسخ.. وأزاحت القمطة التى على رأسها.. وانسدل شعرها حول رقبتها..

ضربت فيه المشط الكبير وجعلت على رأسها توكة مشغولة بالترتر.. احتفظت بالشعر بعيدا عن جبهتها.. فظهرت رقبتها جميلة.. والثوب بدون كولة ومحبوك الصدر.. رفعت بيدها حمالة الصدر وفتحت الياقة.. فأظهرت السلسلة الذهب التى تنتهى بالماشاالله.. تتراقص على الفلق بين الثديين.. وقرصت خديها.. ومررت قلم الحواجب على حواجبها وهى تعض بأسنانها فى شفتيها، وفتحت علبة الكريم ودعكت يديها ورقبتها ونثرت قليلا من ذرات البودرة على وجنتيها. ثم لطشت خديها بلمسة من إصبع الأحمر.. ووزعته على خدودها.. وبزجاجة العطر التى اشترتها خلسة من زنقة الستات. قطرت بعض القطرات تحت إبطيها.. وعادت إلى المطبخ..

حملت صينية الشاى..

ودخلت إلى نظلة وابنها.. وبين يديها صينية الشاى وكأنها عروس تقدم الشاى لمن سيخطبها.. ابتسامة عريضة على شفتيها.. أذهلت الجميع.

الست نظلة كل شىء فى وجهها صار مستديرا.. وابنها صار منتحى. وخميس تمنى لو أن الجيران.. رأوها وهى فى صورتها هذه.. التى نادرا ما تفعلها من أجله.. قد تفعلها.. أثناء الخروج.. ولكنها لا تفعلها فى البيت له، وهى بعد قليل.. ستلجأ إلى سريرها.. وهو سينام على الكنبة فى الصالة!

وقالت فتحية وهى تناول الست نظلة.. كوب الشاى:

- يا ست أم إبراهيم.. لا تتعبى نفسك.. الفلوس فلوسه وهو حر فيها.. يشيلها مكان ما يرغب، المهم أن مصاريف البيت لا تنقص شيئا وخلاص. وأنا واثقة أن خميس شاطر، ولا أحد يلفه ويأخذ منه فلوسه.. الناس فاكراه «عبيط» لكن أنا «بس» أعرف بأنه يستطيع أن يوديهم البحر ويعود بهم عطاشى.»

وهدأت الخواطر.. والست نظلة.. ابتسمت وارتاحت وهى تقول:

- عاقلة.. والله عاقلة.. يا فتحية..

ونصف ساعة مضت فى كلام تأتى أطرافه من هنا وهناك.. ثم انصرفت نظلة وابنها، ولم تقل فتحية لهما «جبتك يا عبد المعين..»

وخميس.. كان يحتضن أمه الحنون - وأخيه الحنون. كما يسميهما.. يحتضنهما بشدة.. وكأنه يود لو أنهما مكثا معه طول العمر.. وفتحية سلمت عليهما مرتين. ثم سحبت خميس من يده.. لتغلق خلفهما الباب برفق واستدارت إليه مبتسمة. مسبلة عينيها، وخميس قلبه كان يدق.. أعتقد أن فتحية ستعود إلى ثورتها ضده..

والضغط عليه، ليقر بمكان الفلوس..

ولكن فتحية.. كانت قد صعدت إلى خطة أخرى. قامت بالاطمئنان على تنويم أطفالها فى أماكنهم، أغلقت عليهم باب الحجرة فى حرص.. وعرجت إلى حجرة نومها.. ارتدت القميص الفستقى عارى الصدر.. الذى يظهر ما تحته.. ووضعت على شفتيها اللون الأحمر الوردى.. وخميس يتابعها وهى آتية إليه.. كما تأتى إليه فى الأحلام.. وقفت أمامه برهة.. ثم استدارت.. واتجهت

إلى باب الشقة.. تربسته بالترباس.. ومشت إليه، أمسكت بمعصمه فقام معها مسحورا.. غادر الكنبة التى عادة ما تتركه عليها.. مكوما.. ودخلت به إلى غرفة النوم.. سبقته وصعدت إلى السرير، رد باب الأوضة، وقفز إلى جوارها، ثم انقلب ليصعد على صدرها.. وهو ينزع قطعة البيجامة أسرع من البرق..

فتحية احتضنته.. وقبلته وأثارته.. حتى ارتفعت درجة حرارته واستعد للوصال..

مهدت له.. ومكنته منها.. وهو فى عنفوان لذته.. كان يحتضنها بشدة وكانت تحتضنه بشدة..

وهما فى القمة يذوب أى شىء وشعرت أنه فى القمة.. قالت له فى أذنه.

- أين أخفيت فلوس المكافأة يا خميس يا حبيبى؟

وظل خميس مندمجا فى قمته.. حتى الذروة..

وعندما بدأ فى الانحدار.. من عل كحجر.. قال وهو يهبط متخبطا:

«بَحّ.. يا توحة.. بَحّ».

لكن - توحة - لم تغضب مدت له حبال الصبر حتى يبوح..

وكان خميس - قد قرر أن يظل يغترف من العسل إلى أطول فترة ممكنة.. تتيحها له «بَحّ»، وقد عزم أن لا يصل بها إلى نهاية

المطاف.. وتوحة صارت زوجة تعمل على راحته..

وطالما.. تمسك بـ «بَـخٌ» المدهشة. فهى متألقة دوما..!

* * * *

المغنواتى..
والراقصة..
ولعبة القدر..!

عندما كنت موظفا بوحدة المصانع.. كان مصطفى أحمد عمار.. يغنى أغانى عبد الحليم حافظ «صافينى مرة.. وعلى قد الشوق اللى فى عيونى يا جميل سلم.» وكان يهز رأسه كثيرا، ويمط رقبته، ويحرك يديه مثل عبد الحليم.. الذى لم يكن مشهورا - كما عبد الغنى السيد، ومحمد قنديل، وعبد المطلب، وكارم محمود - فى ذلك الوقت.

ومصطفى عمار.. عُرف بين العمال.. بمصطفى المغنواتى. أو مصطفى حليم. والعمال فى وقت راحتهم.. يقولون له - غنى يا

مـصطفى.. يغنى.. وعنابر الإنتـاج مـعظمـهـا مـتـوقف فى الوردية المسائية.. وعدد العمال قليل.. والسهرانين عنبر أو اثنان. بهما عدد قليل من الماكينات.. يقطعون مقطوعـاتهم، ويوقفها الأسطوات عند الفـجـر.. بعض العـمـال ينامـون، ومـعظم العـمـال يتـحلقـون حـول مصطفى عمار.. يستمعون إليه فى شجن وهو يغنى، ويعيد ويزيد، حتى ينبلج الصباح. والجميع يقول له«الله يا حُلم». اشجينا يا حُلم!

ومـصطفى كـان يتـقـرب منى بحكم أننا نسكن فى «أرض الموز بباكوس» أنا فى آخـر شـارع مـسلم بن الوليد.. وهو فى منتصف الشارع.. فى بيت أم ممس أمام رقم ١٧.

بيت مـصطفى عمـار.. ليس له رقم.. البيت مبنى من أكشـاك وغرف متراصة حول حوش، وبعض الجدران من الخشب والصفيح الصدئ.. وبعضها من الطوب الذى ليس له أساس..

وكان والده «عم أحمد عمار».. يعمل «شيخ حارة» يجلس على المقهى الصغير المجاور لنقطة بوليس باكوس يدخن المعسل، ويشرب الشاى على حساب الزبائن الذى يضمنهم..

و«حصول النوبتجى» فى النقطة يرسل إليه بمن يضمنهم، حتى لو كانوا من غير أهل باكوس. فقط، ليقتسم معه «الغلة».. التى لا تزيد عن قروش قليلة يرتزق بها..

وشغلة عم عمار أخذ يتضاءل شأنها، وتفقد أهميتها.. بعد أن صار لكل بنى آدم فى باكوس، بلغ السن القانونى.. بطاقة شخصية أو عائلية، تضمنه أمام الحكومة. فتحولت شغلة عم عمار إلى نوع

من أنواع التسول والارتزاق، لكن الرجل سريعا ما أتقن كتابة العرائض، وملء استمارات استخراج البطاقات الشخصية من السجل المدنى الذى استقر مكتبه فوق «نقطة باكوس». ولولا أن السجل المدنى استقر فوق «النقطة» ما كان أحد سيعرف، كيف سيعيش عم عمار، ويربى أولاده الثمانية وأكبرهم مصطفى..!

ومصطفى لم يتلق تعليما فى مدارس منتظمة.. وفيما يبدو أن ثمة محاولات تمت معه فى مدرسة أولية أشبه بالكتاب.. وبالكاد فكت فى ذهنه عقدة الحروف. ومن لافتات الشوارع والدكاكين، استهجى وتعلم، كيف تكون صورة الكلمات.. فتعلم كيف يقرأ.. ولكنه لا يكتب.. وبصعوبة شديدة، كان يرسم اسمه فى كشوف صرف المرتبات..

ومصطفى عمار.. لما اشتغل صبيا فى المصنع.. كان يبدو عليه الفقر الشديد.. فمعظم العمال فقراء.. ولكنهم يأتون من منازلهم بملابس نظيفة نوعا، يخلعونها ويرتدون ملابس العمل القديمة الممزقة المتسخة.. مصطفى ظل فترة طويلة، وهو صبى.. يأتى ويعود إلى بيته بملابس العنابر التى يأنف فقراء العمال من ارتدائها.. وعندما عرف الطريق إلى «فتحى واتكو» بائع الملابس بالآجل و«على باتا».. بائع الأحذية والصنادل والسلبسات بالآجل.. كان قد صار صبيا يافعا يدخل مرحلة الشباب. فارتدى القميص رمش العين.. والبنطلون الصوف الهيلد، وحذاء من باتا.. بأربعة

ريالات ونصف.. على أن يدفع ريالين أسبوعيا.. تم تخفيضها إلى «ريال ونصف».

ففى ذلك الوقت لم يكن أجر الصبى يزيد عن ريال بأى حال.. وإلا دخل فى كدر أسطوات الماكينات.. وكل شىء كان يحسب بالريال.. حتى الستينيات.. عندما صار الحد الأدنى للأجور.. خمسة وعشرون قرشا.. ريال وربع!

والموظفون فقط.. هم الذين كانوا يعرفون «الجنيه».. لكن مصطفى.. كان يغنى أغانى عبد الحليم حافظ.. عبد الحليم الذى جرى القرش فى يده، بعد اليتم والملجأ والمعاناة..

وقد جعل مصطفى شعر رأسه على هيئة «بوف» مفروق على جنب مثل بوف عبد الحليم..!

وصار يبذل الجهد فى العمل الإضافى.. حتى أمكن أن يرتدى الجيليه بدون أكمام فوق القميص الكلاسيك والبنطلون الصوف الإنجليزى ويتمايل ويقفز فى مشيته..

وعن بُعد.. تقول أنه عبد الحليم. الخالق الناطق..

كان ظهور مصطفى عمار أمامنا يفكرنا بعبد الحليم حافظ وإذا ما شاهدنا فيلما لعبد الحليم.. فكرنا بمصطفى عمار.. ومصطفى كان يحفظ أغانى عبد الحليم حافظ الجديدة - عن ظهر قلب - بمجرد سماع الأغنية من الراديو لمرة واحدة.. فى المرة الثانية يتقن اللحن ويطلقه بفمه مستخدما حنجرته وحلقه وأنفه.. ويصنع الرتم بأصبعه على أى ترابيزة..!

وعندها كنت أعـجب بمصطفى.. أنا الذى لا أحـفظ أغنيـة واحدة.. ولكنى أعشق سماع الأغانى موت.. قلت له:

«يا مـصطفى.. يمكنك أن تتقـدم لإذاعـة الإسكندرية.. صـوتك حلو.. وحـافظ عبـد الوهاب هو الذى اكتشف عبـد الحليم شبـانة بالصـدفـة - إذ غـاب كـارم مـحـمـود صـاحب الأغنيـة التى تعـزفهـا الفرقة الموسيقية فأشاروا إلى نافخ الأبوا.. بأن ينقذ الموقف.. ومنذ أن سمعه (المفتش) حافظ عبد الوهاب - أطلق عليه اسمه وتبناه.. اذهب إليه.. قد يكتشفك أنت الآخر..».

قال مصطفى:

لكنى لا أعرف الطريق.. أنا رمـلاوى إذا ذهبت إلى - «البلد» - أتوه..

قلت له: اذهب إلى قهوة الفنانين فى شارع السوق بباكوس.

قال: ذهبت. فلم أعرف كيف أبيع الماء فى حارة السقايين.

قلت له: أنا أعـرف العـمـارة التى بهـا الإذاعـة المحليـة إنهـا فى «العطارين».. بالقـرب من مـحطـة الرمل سـأصـحـبك إلى هـناك.. أفضى نفسى وأذهب معك!

قال مصطفى: خلاص.. سأذهب معك بمجرد أن أشترى جاكتة كـاروهـات.. ارتـديهـا عـلى البنطلون الأزرق.. الفنـان لازم يكون محترم..

وقتها كان مصطفى عمار قد تجاوز العشرين من عمره..

وكنت أكبره بعامين، ولم يصبنى الدور فى الخدمة العسكرية، وتواعدنا على أن نذهب إلى الإذاعة لمقابلة حافظ عبد الوهاب.. يوم الاثنين.. وتم تجنيد مصطفى عمار يوم الأحد..

وحارب مصطفى فى اليمن..

وجاء من اليمن.. وتم تسريحه لفترة قليلة ليطلب مرة أخرى كرديف لحرب يونيو ٦٧.

وكما قال لى بعد عودته «شفت الويل» لكنه لم يتحدث عما شافه!

ولم يعد مصطفى يغنى صارت ذاكرته لا تحفظ الأغانى كاملة.. واحتاج الأمر إلى وقت، حتى يجمع «كوبليه» من هنا.. و«كوبليه من هناك.. لكن يموت الزمار..

كان - ساعات - ينجلى.. ينفرد بى فى تمشية على شاطئ البحر.. يضربنا الهواء المنعش فينعش ذاكرته بالمقاطع والمواويل.. والأشجان.. اعتقدت أن مصطفى يحب.. لكن مصطفى كان مثل عبد الحليم.. لا يفكر فى الزواج.. ويغنى للحب فقط.. الغناء الحزين المحروم.

قلت له: يا مصطفى.. أنا رأيى إنك تحترف الغناء، حاول أن تغنى فى الحفلات.. الحفلات تعلمك الجرأة ومواجهة الجمهور.. وبصوتك الحلو هذا، يمكن أن تكسب أموالا كثيرة... «شوف عبد الحليم كان إيه وبقى إيه».

لم أكن أقـصـد بأن أرسل بمصطفى ليغنى فى فـرق العـوالم - الفـالصـو - ولكنه عرف الطريق إليـهـا، وغنى فى الشـوادر، وفـوق أسطح البيوت وبداخلها.. غنى أغانى عبد الحليم حافظ.. وحقق نجـاحـا.. وبرغم أن وكـلاء الفنانين.. لا يمنحـونه إلا «نحـتـات» صغيرة، لكنه كان يجمع المقابل المادى.. لثلاث حفلات، تتم كل ليلة خـمـيس.. بجـانب ثلاث حـفـلات أخـرى.. فى المتـوسط. طوال الأسبوع.. وظهر عليه ذلك المردود المادى.. فيما يرتديه من ملابس، وفيما ينفقه على أخواته.. والدماء جرت فى وجهه!!

ولكنه حـافظ على العـمل فى المصنع. على مـاكـينات صناعـة ظروف الجوابات. ورغم السهر ليلاتى لوش الفجر..!

ونقلت من إدارة وحدة المصـانع.. إلى إدارة المنطقـة.. وانقطعت صلتى المبـاشـرة بمصطفى عـمـار.. الذى كنت أسـمع بأنه يحـقق نجـاحـا مـاديا.. لكن نجـاحـه الفنى بقى مـحـدودا، وفى نطاق.. متعهدى الأفراح والليالى الملاح..

والتى فيها.. لابد وأن يتعشى.. ويضرب «نفسين».

والتقيت به مرة.. عند وفاة أمه.. للعزاء. وشاهدت على ملامحه التغيرات التى أحدثها السهر المتواصل. والأنفاس. وحياة الفنانين الحالمين. وكان جسمه ووجهه بالذات.. يفقد شحمه ولحمه ويبقى على عظامه بارزة.. وكان يتشبـه بعبـد الحليم حتى فى مـرضـه وهزاله «كان المرض قـد داهم عبـد الحليم حـافظ» وفى سـرادق العـزاء - شـاهدت بعـينى كـيف ينفق على والده المريض، وعلى

اخواته.. ويستجيب لمطالبهم. وقال له الأستاذ عبد الصمد، أمامى:

- ربنا سبحانه وتعالى هيئك يا مصطفى.. لتغنى من أجل عائلتك الكبيرة.. ولعل شهرة عبد الحليم.. كانت السبب فى إعالة أخواتك، والوصول بهم إلى بر الأمان!

* * * *

ومرة أخرى - مصادفة أيضا - شاهدت «مصطفى حليم» يغنى فى حفل زفاف إحدى قريباتى. سلمت عليه.. وهو على المسرح، وأنا بين الجمهور. وأهدى لى أغنية، وهو يقف أمام الميكروفون - وكان قد تعلم كيف (يلاغى) الجميع «على قد الشوق اللى فى عيونى يا جميل سلم» وأشار نحوى، فالتفت الجميع نحوى..

وتباهيت به أمام الأقارب. ولم أقل لهم أن مصطفى حليم - هذا - الذى يغنى فى حُلة أنيقة لا يزال واحد من عمال مصنعنا..

«مصنعنا وشركتنا - مصطلح على المصانع أو الشركات التى تمتلكها الحكومة وتعلن أنها ملِك للعمال».

وبعد أداء وصلته الغنائية. هبط المطرب مصطفى حليم من فوق المسرح.. وجلس معى على المائدة.. وكنت أشاهد «نمرة رقص» تؤديها إحدى الراقصات التى ذهب زمانهن. كانت سمينة، وقصيرة، وبطيئة الحركة.. وملابس الرقص التى ترتديها فاضحة.. وتأتى بإشارات جنسية صريحة، فتزيد من اشمئزاز البعض ومن هياج الشباب المراهق.. وتناثرت التعليقات. بين مؤيد ومعارض..

والسيدات بالذات، كن يتصايحن «ينيلك يا فردوس».. انت لسة بترقصى.. الى زيك بقيت «تيتة» «ح تروحى من ربنا فين».

ومصطفى حليم الذى كان يؤانسنا.. كان يبتسم، أو يتجهم، أو يفعلهما معا.

فردوس الراقصة. التى تزوجت زيجات عديدة فاشلة، والتى أثارت التعليقات على الموائد.. أنهت «نمرتها» وارتدت ملابسها.. وجاءت من الخلف تشق طريقها نحو مائدتنا.

كان مصطفى حليم ينتظرها.. فهى قد صارت زوجته ويعيش فى شقتها بالمندرة.. ولم نكن نعرف.. وعقدت الدهشة لسانى.. وهو يقدمنى لها «مدير فى شركتنا» وأمامها.. سجل موقفه «والله يا أستاذ.. أنا لا أرغب فى أن ترقص.. خصوصا وهى حامل فى شهرها الرابع.. ولكنها وعدتنى بأن تعتزل». وشعرت بمشاعر متضاربة. ولم أجرؤ على التعليق، فقد رأيته سعيدا بزواجه من فردوس.. بينما اجتاحنى الخجل الشديد.. فقد كان يسمع التعليقات الساخرة من أقاربى.. وكان يبتسم مثلنا..!!

مع أننى تناسيت هذا الموضوع، وأنا أدرك بأن حياة الفنانين لها أسبابها الموضوعية.. ولم أكن (بشركتنا) مصدرا.. لأى شائعة.. دارت فى الإدارات أو المصانع حول زواج مصطفى.. من فردوس الراقصة.. إلا أن الموضوع كان مثارا.. بصورة جعلت منه «الموضوع الرئيسى» بين العاملين فى الشركة..

فى تلك الآونة بالذات.. خشيت أن يعتقد مصطفى.. أننى السبب.. بعدها اتصل بى تليفونيا.. وأبلغنى، بأن فردوس..

انقطعت عن الرقص كما وعَدَتهُ وإنها تحجبتْ، وتصلى الوقت بوقته..!

وقلت له: أنت بذلك.. سيكون ثوابك مضاعفا يا مصطفى..

فقال مندهشا: بالذمة يا أستاذ؟!

* * * *

وبمرور الأيام. «نمرة» مصطفى حليم.. بعد ظهور أعداد كبيرة من المقلدين لحلُم!.. لم تعد مطلوبة، من متعهدى الأفراح.. وفردوس جاءت له بالولد والبنت. وبحكم أن الشقة، شقة فردوس.. والمصاريف تزيد عن الدخل كثيرا، فقد ثارت المنازعات بين الزوجين.. وبعضها كان أساسه الغيرة.. ومصطفى يتأنق فى ملابسه، ويتردد على أماكن العمل.. ويخطط ليغنى فى كازينوهات شاطئ الكورنيش.. وفردوس.. ظهر عليها آثار الزمن. وصارت كركوية. وعصبية.. وعلى إثر أى مشاجرة بينهما كانت فردوس تغلق باب شقتها بالترباس دونه، وقد أخرجت إليه حقيبة ملابسه على الباب. وإذا شكى منها.. يلومونه، بأنه تزوج من راقصة.. وعليه أن يتحمل ما ينضح به الماعون.. حتى صارت فردوس تستولى على كامل دخله من الحفلات ومرتبه من الشركة، وهو خانع..!

يضطر للخنوع ليكون بالقرب من ولديه.. فيعقد صلحا على شروطها، وفى كل مرة، كانت الشروط تضيق الخناق على رقبة مصطفى حُلم.

وبحكم ما هو معروف عن مصطفى حُلم، وعلاقته بالطرب والمطربين، وصلته الوطيدة بالفنانين والآلاتية. كان كل من يحتاج إلى إقامة حفل يذهب إليه يستشيره.. فصار مصطفى، متعهدا لإقامة الأفراح، والليالى الملاح.. ويقول:

«مرة اكسب.. ومرة أطلع من المولد بلا حمص.. وأهى ماشية».

لكن مصطفى.. «ساعات» كان يغنى.. والجمهور يتمسك به، ويستعيد ما يغنيه، مرات. مصطفى يحفظ الأغانى القديمة لعبد الحليم.. ويحفظ أغانى لعبد الوهاب، وفريد، وعددًا من المواويل الشاكية.. الباكية!

وفردوس. كانت تجلس فى الفرقة - كديكور - ساعات يهزها الطرب. وتقوم ترقص..!

وفى كل الأحوال.. كان ما يفعله مصطفى حليم وفردوس التى تلازمه كظله.. وسيلة يتغلبون بها على المعايش.. لكن ابنهما مدحت كبر.. وبنتهما نوال صارت تخجل من مهنة والديها.. ولا تريد أن تسمع شيئا عن مهنة أمها.. وكان ذلك يحد من تماديها فى العمل..!

وعندما شرعت «شركتنا» فى قبول طلبات الخروج إلى المعاش المبكر.. تقدم مصطفى أحمد عمار بطلب. وانتظر «المكافأة» التى لن تقل عن عشرين ألف جنيه.

ليفتح بالمبلغ - «محلا» - يتخذه مكتبا لمتعهد أفراح، كما يعرض بداخله.. آلات موسيقية للإيجار.

* * * *

وجـاء إلىّ فى الشـئـون الإدارية.. يســألنى إن كـان ذلك فى صالحه.. بحكم علاقتنا القديمة.. شجعته على أساس «النقود فى المشاريع الناجحة، تتضاعف» ولكنى لاحظت بأنه يريد أن يشكو لى من حياته.. التى خرج منها بقبض الريح.. وذلك الخطأ الجسيم الذى وقع فيه.. إذ تزوج من «فـردوس».. وهى على وشك «تسليم النمر»!

كلمنى كلمات قليلة.. كان يقطعها، لتوالى دخول العاملين إلى مكتبى.. ثم استـأذن، وانصرف.. على أن أتابع له.. «حالة المعاش المبكر» و«المكافأة» وفوجئت بالأستاذ عبد الصمد.. يخبرنى بأن الست فردوس - ورفع يديه عند أكتافه وهز جسمه - ففهمت أنه يعنى «الراقصة» ولم ابتسم فأصابه الحرج..!

وقال: أصلها كانت بتسأل عن سيادتك بالتليفون.. لما كنت فى اجتماع «شئون العاملين».. ولما تكرر سؤالها.. قلت لها: أى خدمة يا هانم» فاستفسرت عن المبلغ الذى يمكن أن يتقاضاه» مصطفى المغنواتى» لما يسيب الشغل.

انزعجت وقلت له: وهل أبلغتها؟

هز رأسه وقال: قلت لها المبلغ لن يزيد عن عشرين ألف جنيه.. لأن معاش مصطفى الشهرى سيكون كبيرا بحكم أقدميته..

ولأنى كنت أعلم بالعلاقة المتوترة بينها وبين زوجها عاتبت الأستاذ عبد الصمد.. على إعطاء أى بيانات لغير صاحب الشأن.. قد يخفيها المنتفع وتسبب له بذلك حرجا..!

فقال وهو ساخط على نفسه: عندك حق يا أستاذ ساعات الواحد بيطب «زى البأف».

ولم يكن المجال يسمح بأن استفسر منه عن معنى.. «البأف»..!

* * * *

مصطفى عمار.. الشهير بمصطفى حليم مات.. ودفناه فى مشهد حضره عدد كبير من الفنانين والهواة.. بجانب عمال شركتنا..

والوفاة كانت مفاجأة. حدثت قبيل صرف شيك المعاش المبكر بأقل من أسبوعين..!

كان قد حضر حفلا.. وعاد إلى منزله فى الفجر لينام ساعتين. كما هى العادة.. ويستيقظ ليلحق بموعد عمله فى المصنع.. والمصنع كان يمر بحالة ركود.. فينام كما يحلو له.. حتى موعد الانصراف!

نور الصالة فى شقة فردوس كان منطفئا. لما فتح باب الشقة بالمفتاح الخاص به.. فوجئ بالظلام الحالك فى الصالة. داس على كبس النور ليضىء النجفة التى فوق الترابيزة التى يستخدمها كسفرة.. الترابيزة كانت عارية من الغطاء المشمع.. وهى ترابيزة

حديد وسطحها من الصاج.. كان الوقت صيفا.. ومصطفى، يضع قدميه فى «كنترة» خفيفة اعتاد عند دخوله (شقة فردوس) وحتى يتجنب تأنيب فردوس له إذا ما داس بها على سجادة الصالة، أن يخلع الحذاء.. خلع «الكنترة» ومضى يتحسس طريقه إلى غرفة النوم.. استيقظت فردوس لكنها لم تفتح عينيها أبلغته بأن نور الصالة خسران وطلبت منه أن يثبت المصابيح.. أو يوصل السلك المقطوع.. ومصطفى يعرف.. كيف تكون مطالب فردوس ملحة.. وكيف أنها لن تكف عنه لينام.. إذا لم يفعل..

عاد إلى الصالة المظلمة.. نور غرفة النوم أظهر له طريقه فى الصالة المظلمة.. كان مصطفى منهكا.. ويريد أن يضع رأسه على الوسادة وينام.. السهرة كانت بها عشاء دسم.. ودخان أزرق وإجهاد شديد.. كان قد خلع بنطلونه وقميصه عند دخوله حجرة النوم.. ولما عاد.. عاد بالملابس الداخلية..

وتقول الست فردوس و«هى فى ملابس الحداد التى لا تليق مع الشعر المصبوغ باللون الأحمر المتدرج».. وجلد الوجه مكرمش..

و«النبى ألححت على مصطفى بأن يرجئ إصلاح النجفة إلى وقت آخر والنبى حصل» قلت له: الصباح رباح يا مصطفى، لكن مصطفى.. وهذا قدره.. تتعدد الأسباب والموت واحد.. صعد حافيا على الترابيزة الحديد.. ورفع يده إلى النجفة.. ثم راح يئن ويرتجف، حتى سقط متخشبا من فوق الترابيزة، على بلاط الصالة.. أنا حاولت إسعافه.. وصرخت بالصوت الحيانى، أنادى

الجيران.. وامتلأت الشقة «بالشهود ليشهدوا.. بأن مصطفى الله يرحمه.. صعقه التيار الكهربائى..»

فى التحقيق أنا لم أقل أنه كان «مسطولا»..

«الواحدة برضه لازم تكون سترا وغطاءً على زوجها»..

وبأوراق شباك الوراثة.. السيدة فردوس صالح عبد الغنى بصفتها - وارثة - وبصفتها، وصية على أولادها القصر.. قبضت فلوس «مكافأة» المعاش المبكر للمرحوم مصطفى أحمد عمار.. وفلوس الجنازة.. وفلوس التأمينات.. والأستاذ عبد الصمد.. أمسك بطرف شاربه..

وقال: شنبى أهو.. إن لم يكن وراء موت مصطفى المغنواتى «إنة» ورفع ذراعيه فى محاذاة أكتافه، وأخد يهتز.. فتغابيت..

وأنا الذى استمعت لفردوس الحزينة وهى تقدم الدليل على اشتراكها فى تخطيط.. لعبة القدر.. عندما.. ذكرت بأنها صرخت.. تنادى على الجيران.. فامتلأت الشقة.. «بالشهود». لماذا.. «قالت الشهود»..؟

وقلت.. هروبا من الفكرة التى تلح على ذهنى:

- يا أخى هذا قدره.. فإن بعض الظن إثم..

مط الأستاذ عبد الصمد رقبته كما مط فى كلامه وهو يقول:

- بعض الظن يا أستاذ.. فمن الذى سيبحث فى البعض الآخر.. آآه..؟

لكنى كنت أفكر فى «بأف» و«إنة» وهذه الألفــاظ التى صــار يستخدمها الأستاذ عبد الصمد.. الرجل المثقف.. والذى يستطيع أن يتحدث باللغة العربية الواضحة والفصيحة!

الأسطى شعبان

وولده سليمان

.. منذ أن تم تعيينى فى «الشركة» - بعد التخرج مباشرة - اقتحمتنى شهرة الأسطى شعبان.. الرجل شبه الأمى.. والذى يشبه «العتالين» الصعايدة فى تكوينه البدنى، إذ سمعت أنه يقوم بإصلاح ماكينات المصنع.. وهو الرجل «الأمى»..

عرفونى به.. قبل أن أتقابل معه، وأعرفه عن قرب..

الأسطى شعبان. يعمل فى المصنع، منذ أيام الجاليات الأجنبية ونفوذها الطاغى بالإسكندرية. ومن الجاليات، كان أصحاب «المصنع» حملة الأسهم ومنهم مدير المصنع - الخواجة باندليس ورؤساء الأقسام الفنية. كالوس الجريجى. على قسم الفوتولينو

والتجهيز.. وجوليانو الإيطالى.. على قسم ماكينات الطباعة الأفست. التى تزود شركة الحلويات بالأغلفة الملونة وصور الفنانات العالميات. والخواجة المالطى بندالى. رئيس على ماكينات طباعة الحروف.. وجميع إصلاحات آلات المصنع، من السكاكين وماكينات تسطير الكراسات. إلى ماكينات صناعة ظروف الجوابات، وآلات صناعة أكياس الشاى، وعبوات الزهرة والكمون والفلفل..

كان الخواجة كرياكو صاحب «ورشة أثينا» فى شارع صلاح الدين.. على مبعدة دكاكين من مقام أبى الدرداء.. يرسل الفنيين من طرفه، للإصلاحات، وصيانة ماكينات المصنع.. مقابل أجر ثابت أما إذا كانت الإصلاحات فى الموتورات والأجهزة الدقيقة. جاء الخواجة «كرياكو» بنفسه، يصلح الأجهزة الدقيقة، ثم يترك من صبيانه واحدا - ومعظمهم أجانب ومتمصرين ليلاحظ التشغيل لعدة ساعات.. ثم يغادر المصنع..

و«لم يكن أحد يدرى، بأن الأسطى شعبان.. الذى يشرف على الوردية المسائية.. كان يختبر قدراته فى إصلاح المعطوب من الماكينات.. وإنه حتى إذا أنهى العمال مقطوعاتهم، وناموا مع سكرات ساعة الفجر.. كان يظل مستيقظا.. وبمفاتيح يخفيها.. يحل ويربط.. ويشهق بالمعرفة.. مغرما بهوايته».

إذ كان الفنيين الأجانب.. لا يسمحون فى نقل كامل الخبرة.. إلى أحد غيرهم..

* * * *

بقيام «حركة الجيش» بدأ المصريون يخلصون مدينتهم تدريجيا من قبضة الجاليات، والخواجات، وبالتأكد من أن حركة الجيش.. تمضى فى طريقها لتتحول إلى ثورة.. خاصة، عندما انحازت إلى النظام الجمهورى وعزلت الملك الطفل.. فى ثانى عزل للملك..

«ثورة يوليو تكون الوحيدة التى عزلت ملكين».

فقد شرع اليهود فى الرحيل، تهريب أموالهم، خاصة عقب - فضيحة الإرهابى لافون - الذى فجر دور السينما الأمريكية بالإسكندرية لإظهار الثوار بأنهم إرهابيين.. والوقيعة بينهم وبين - «أمريكا» - التى أبدت تعاونا مع الثورة.

فقد اتخذ اليهود من نظام «المقاصة» مع الجاليات المختلفة.. «أترك لك ممتلكاتى فى مصر.. مقابل ممتلكات لك فى الخارج».

وبتأميم قنال السويس.. بدأت الجالية الفرنسية والإنجليزية فى الرحيل..

كما شرعت الجاليات الأخرى فى تصفية أعمالها.. وهى جاليات تعمل كوسيط بين الملاك والمصريين.. وقد طمح أفندية الثورة فى الحلول بوظائفهم..!

وخرج عبد الناصر من أزمة حرب بور سعيد بعد تأميم القنال أقوى مما دخلها.. وتسلم المصريون مدنهم، والأعمال الصناعية والتجارية انتقلت إليهم.. وعدد كبير من المصريين لم يكن مستعدا

لهذه التحولات.. فى أن يحل محل الخواجات.. لا فى التجارة ولا فى الصناعة..!

وأصحاب رؤوس المال من الخواجات.. لم يعتمدوا على المصريين إلا كصف ثالث.. والصف الثانى كان من خواجات البحر الأبيض وجزره.. كعازل بينهم وبين المصريين.. فكان منهم الفنيين.. وأصحاب الأعمال الوسيطة، ولم يكن للمصريين عموما إلا الأعمال المتدنية.. أو المظهرية الموروثة!!

وكما حدث فى أزمة قنال السويس.. عندما تآمر المرشدون، وتركوا أعمالهم فى شركة قنال السويس فجأة.. وجماعة.. لإظهار عجز وفشل المصريين فى إدارة «الشركة العالمية» وتأليب العالم عليهم..

حدث أن تخلى معظم الخواجات عن أعمالهم الوسيطة والفنية فى - الشركات - دفعة واحدة تقريبا.. بغرض تعطل المصانع وتخريبها.. عندما لا يوجد من يقوم بتشغيلها، وصيانتها.. وهم أثناء تواجدهم الطويل.. جعلوا - من الأسطوات أبناء البلد.. أشبه بمقاولى الأنفار.. ورؤساء الكلات للعتالة والنظافة..

ولكن كما حدث.. عندما فوجىء العالم بأن السفن بدأت تسير قوافلها عبر القناة..

وترشد من قبل ضباط البحرية المصرية وعدد من اليونانيين الأصدقاء مما أفسد المؤامرة العالمية.. فقد حدثت المعجزة من الأسطى شعبان..» الذى كان يوهم الجميع بطيبته، ومظهره الذى

يبدو غبيا.. لا يفهم ما حوله.. الرجل أخفى عن الجميع غرامه بالميكانيكا.. وأنه كان - سرا - يقف طويلا أمام علاقة التروس ببعضها، ويرقب حركة السلندرات وتوافقها فى الماكينات.. وقوة المواتير بالنسبة لعدد الملفات فى ماكينات الطباعة.. والتسطير.. وأمكن له فى الخفاء، أن يفك، ويركب، قطع بديلة لماكينات الأكياس وظروف الجوابات.. وأيضاً أصلح مرارًا، سكاكين القص الأوتوموتيكية.. ونصف الآلية.. الرجل كان بجانب عمله فى الوردية المسائية.. كان يدرس ويراقب ويحاول ويتعلم.. وكأنه بحاسته السادسة يعد نفسه لأن يحل محل «ورشة كرياكو» وصبيانه من الأرمن والجريج والطليان..!

لقد قام عم شعبان بدور «المرشدين» لقوافل السفن.. دوره فى الواقع كان وطنيا وعظيما فقد أنبرى يصلح الماكينات ويصونها يحاديها حتى لا تتعطل..

ولكن العالم سمع بحكاية المرشدين.. ولم يسمع أحد عن عمل الأسطى شعبان العظيم فى مصنعنا وقد تنكر له معظم العاملين بالمصنع.. واستكثروا على الرجل.. صعيدى الملامح.. الذى عاش عمره فى شارع السوق بباكوس.. ومازال يرتدى الصديرى البلدى تحت جاكت البدلة الشعبية.. وصلعته التى تحتل قمة رأسه الكبير، يداريها بطاقية صوف بحراوية.. ولا يزال يستخدم اللهجة الريفية فى كلامه.. تشير إلى طرف من والديه صعيدى، وطرف آخر منوفى أو طنطاوى.. ومع ذلك قد يستخدم - أحيانا فى كلامه

صيغة الجمع كالإسكندرانيين الأصلاء، ساكنى بحرى السيالة.. وكوم الشقافة. وكوم الناضورة.. كوم الدكة.. وكوم المهندس الذى يدعى «بكير».!

فى أول لقاء مع الأسطى شعبان.. كنت أريد أن أتعرف منه على دقائق تجربته التى مهما أغمطت - فإنها فى أحاديث الشباب الخاصة تظهر جلية وواضحة..!

الشباب الذين تثقفوا فى (المنظمة) وقد تخطيت صدمة مظهرة الخارجى.. وتعمده أن يظل بملابس مزيتة ومشحمة.. ولا ينظف يديه من شحوم وزيت الماكينات، إلا بقطعة «الأسطبة» التى تزيد يديه سوادا.. وقد ينتقل السواد، والبقع إلى جبهته واجزاء من وجهه.. فلا يهتم.

حاولت التغلغل فيما وراء «ضلفة الدولاب القديم».. كما نصحنا نجيب الريحانى فى فيلم غزل البنات..

لكن الرجل.ببشاشة، فتح أمامى عالما من المعارف «التحتية» والتى لا تسطر فى الكتب..

وأخذ يحدثنى عن نوادى الخواجات ، وكازينوهات السهر.. وخفايا قصور البكوات، والباشوات، فى رمل الإسكندرية.. التى كانت - المصيف المميز للطبقة العليا.. الحاكمة..

وانعطف يحدثنى عن.. أعمال المهندس بكير الذى أقام مجموعة من البنايات للصرف الصحى أثناء الفترة بين الحرب

العالمية الأولى والثانية.. فانتشرت البيوت السرية فى كومه.. ثم كيف تفرق سكان البلوكات فى أنحاء المدينة.. أيام حكومة الوفد وإلغاء البغاء..!

وما كنت أرغب فى معرفة شىء عن كوم بكير.. وكنت أرغب فى أن يقص علىّ تجربته مع الماكينات.. «ونحن فى المنظمة نبحث عن البطولات المصرية الصميمة لإبرازها أثناء المناقشات فى معسكرات العمل..».

– اكتشفت من أول لقاء بالأسطى شعبان.. أنه يستطيع أن يسرح بأى شخص بعيدا.. حتى عما يكون فى ذهنك.. مخططا ومقصودا.. وملفه طرفى بالشئون الإدارية.. كنت أقوم بفحصه، كان يخلو من الخبرات السابقة والشهادات الدراسية.. وأى شىء يمكن أن يصلح ليكون مفتاحا لشخصيته!

ولم يكن أمامى إلا أن – أنكشه – كلما قابلته. لكنه كان يتحدث عن البقالين والزياتين كمن عمل بقالا وزياتا.. ويتحدث عن الحلاقين والمزيتين وكأنه كان حلاقا.. ويتناول ماكينات الرى وماكينات الطحين، وكأنه عمل فى أحدهما قبل أن ينتقل إلى المدينة..!

والرجل يستطيع أن يتحدث عن «الخواجات» الذين عملوا فى المصنع على مدى فترة طويلة.. وأجورهم التى كانت أضعاف أضعاف أجور الأسطوات المصريين.. وكيف كانت مهمة الأسطى محصورة فى السيطرة على جماعة من العمال وتحجيم مشاكلهم.

وكان الأسطى «خولى» مراقب ومتعهد توريد أنفار.. فى الدرجة الأولى..!

وظل «الأسطى شعبان» بالنسبة لى. يمثل أحد الألغاز الذى لم أفك طلسمه. وأنا الذى اشتغلت فى الشركة.. فى فترة انتقال.. وانعطاف النهر.. عندما بدأت الدولة تجمع فى يدها - الشركات التى تركها الأجانب ورحلوا.. وعقب ذلك صدرت القرارات بالتأميم والمشاركة..!

وقد تخلل ذلك.. تعيين فئات من المتعلمين فى المعاهد والجامعات المصرية بالشركات.. عن طريق مكاتب وزارة العمل.. التى يترأسها لأول مرة فى تاريخ مصر.. واحد من النقابيين العمال..!

ولكن معظم أصحاب المؤهلات الدراسية اللذين تم تعيينهم فى الشركات. ولم يسعوا لما وجدوا فيه أنفسهم من أعمال.. استقبلوا أعمالهم الجديدة فى شىء من عدم الرضا.. حتى «المهندسون» منهم.. بحثوا لأنفسهم عن أعمال كتابية، بعيدا عن - «وساخة» شغل الأقسام والإنتاج..!

فيما يشبه دلع وتدلل الأولاد الصغار على آبائهم القادرين..

* * * *

وظل الأسطى شعبان. كما هو.. فى ملابس العمل القديمة المزيتة، المشحمة، والتى يضفى عليها معطفا، تيل أزرق.. ساعة

الاندماج فى تصليح آلة.. يخلعه. والرجل.. لا يتباهى بأنه المنوط به إصلاح آلات المصنع جميعها، ولكنه يفلح فى تشغيلها فى نهاية الأمر..

وهو الذى يتوارى عن العيون.. فى مكانه المعتاد، بعنبر ماكينات الأكياس أول عنبر اشتغل فيه «أسطى».. ينزوى فى ركن منه ليأكل طعامه، ويشرب كوب الشاى. ويدخن سيجارته، التى اعتاد أن يجعلها بداخل كفه متوارية، عن الأنظار، منذ كان يدخنها خلسة أيام الخواجات. والالتزام بعدم التدخين فى العمل واجب التنفيذ.

وعلى الجدار.. فوق رأسه.. علق دولاب من الخشب.. فيما يبدو أنه قام بصنعه بنفسه من خشب الطوايل التى تغلف بآلات الورق.

وقد أغلق الدولاب بقفل كبير على «العدد» والمفاتيح، والأدوات التى يستخدمها فى فك وتصليح الآلات، وسنكر الدولاب القوى، بمزالج من حديد، ورتاج له لسان كبير.. منذ حاول أحد العمال - فى الفترة المسائية - كما كان يفعل الأسطى شعبان نفسه - أن يقوم بتصليح آلة تعطلت.. حتى يمكنه إنجاز «مقطوعيته» الإنتاجية ويفرغ منها.. أمكن له أن يفتح دولاب العدد، والمفاتيح، الخاص بالأسطى شعبان ويستخدمها، وعندما علم بذلك ثار وماج فى غضبة هائلة.. ربما كانت الأولى التى يفصح فيها عن الجانب الآخر من شخصيته، التى يغلب عليها مظهر الطيبة والاعتيادية! ونبه على الجميع بشدة.. بأنه على أتم استعداد أن يأتى من بيته فى شارع «السوق بباكوس» إلى موقع المصنع فى شارع «كوبرى

الناموس».. والمسافة ليست بعيدة.. وفى أى وقت يطلبونه فيه. بالليل - فهو يعتبر نفسه المسئول عن إصلاحات آلات المصنع.. على مدى الأربعة والعشرين ساعة فى اليوم. وغير مسموح لأحد غيره أن يضع يده فى الآلات «حتى لا يلخبط الدنيا» على حد قوله.

وبالفعل.. كان الأسطى شعبان يعمل فى المصنع أكثر من الساعات المقررة.. يأتى صباحا.. ويعود إلى بيته مساءً.. كان يفعل ذلك أيام الخواجات، وظل يفعل ذلك فى «فترة الانتقال» وما بعدها.. والدولة تصدر التنظيمات المتوالية، على ضوء التجربة والخطأ.. حتى تفلح فى إدارة قطاعها العام!».

وانقسمت الآراء حول ما يبذله - الأسطى شعبان من جهود.. دون أن يطلب المقابل.. وأحيانا دون أن يطلب منه أحد ذلك..

بين معارض.. يرى ضرورة الالتزام بالمواعيد - وكان للساعات الإضافية أجرها المضاعف..

ومستنكرا «فئة» الأسطى شعبان من العمال القدامى - وأمور الدحلبة إلى ما ليس من اختصاصهم..!

وآخر يرى أن.. أمثال الأسطى شعبان.. مضرب الأمثال.. فى التضحية والوفاء وهو الذى يعمل أولا، ولا يقف أمام قيمة الأجر الثابت، والإضافى.. والمزايا التى صارت.. حديث الموظفين والعمال.. وكأن الثورة جاءت بالمزايا.. دون السؤال عن المردود الإنتاجى!

وفى ظل توالى صــدور التنظيـمـات وتدبيج بنود اللوائح.. والقـوانين التى تصـدر تبـاعـا.. وكـأن «التـأمـيم» - ليس أمـامـه من إنتاج.. إلا اللوائح وبنودها والقوانين وحيثياتها.. على أثر ذلك ظهر عـدد من الموظفـين.. يبـرعـون فى حفـظ هذه البنود وتسمـيعهـا.. استمدوا مكانتهم، من مكانة الدولة.. التى تحمى قطاعها الذى كان خاصا.. وصار عاما..!

كمـا صـار عدد المديرين.. والرؤساء.. الذين لا يرتدون مـلابس العمل «القديمة» - يتزايد.. بسبب ما يسمى بالتسكين فى الوظائف التى تم ترتيبها على الورق.. أولا..

ووقفت حالة الأسطى شعبان.. متعذرة على التسكين.. طبقا لما جاء فى مواصفات الوظائف على الورق، تلك التى تخص العاملين فى المصنع.. وخاصـة - الأمـيين - الذى بدءوا حيـاتهم العـمليـة - عمال مناولين.. أو صبية..!

وتحلقت حلقة من (المكلمنجية) المنظمين للعمـال.. وبدءوا فى تناول هذه الحالة الفريدة.. بشىء من التقليب والنظر..!

وعم شـعبـان يعـمل.. ولا يطلب شيئـا ولا حتى تغـييـر مسـمى وظيفته القديمة.. ولكن - من الواضح أن جهود الرجل الفنية - هى التى أبقت على آلات المصنع القـديمـة.. تتعكز وتنتج.. بل إن البعض يعزى للأسطى شعبان.. فضل.. بقاء المصنع دائرا..!

ووجـدوا - أن الأسطى شـعـبـان - مـثله مـثل باقى الأسطوات.. عـانى مـن إجـحـاف الخـواجـات.. ولكنه لم يسلم لهم ويسكت مـثل

زمـلائه.. فـقـد تمكن أن يفلت من حـصـار الظلام، ويسـتـفـيـد باستخدام خبرته..

وأنه يمثل حالة - ريادية - فى التمهيد لإبراز مواهب الأسطى المصرى الميكانيكية.. ولا يجب أن يجد أمثاله «المرشدين» - الذين غامروا بمستقبلهم، وهم يقودون السفن، فى ظلام قنال السويس.. وعدم الخبرة الرهيب إلا كل تكريم..

و«على هذا المنوال، قيلت عبارات مسجوعة منقولة من نثر المنفلوطى كما قيلت أبيات من الشعر العربى القديم».

وانتهوا إلى أن الثورة.. جاءت فى الأساس لإنصاف الفلاحين والعمال..! الأسطى شعبان الذى هو من أصل فلاحى. والذى هو «عـامل» أسطى فنى فـرض نفـسـه - باللؤم - على أسطوات الخواجات، وتعلم بدون سبورة، وتختة، ومعلم. لجدير بأن الثورة - يجب أن ترد إليه - حقه السليب..!

وإلا تكون - الثورة - قد عاملته كما عامله الأجانب!

و«عـدد من أعـضـاء اللجنة» كـانوا أعـضـاء فى التنظيـمـات السياسية التى رافقت الثورة، يتدرج معها من هيئة التحرير، إلى الاتحاد القومى، ومنها إلى الاتحاد الاشتراكى - وتحالف قوى الشعب العامل..

وأمثال هؤلاء، إذا أيدو موقفا، يأخذهم الحماس وتتداعى على أذهانهم الصور والأمثلة، إلى الدجى!

وقال «البلتاجى» - الذى يجعل من مقر الاتحاد الاشتراكى فى جناكليس موطنه الدائم.. وعنوانه الثابت:

- يا جماعة..

والتفت إليه الجميع.. فقال بصوت رخيم بدون تعبيرات واضحة على وجهه المحنتف!

- الأسطى شعبان.. فعلها مع الصف الثانى؟!

وانعقدت علامات الاستفهام فى العيون.. فقال:

- كما فعلها معه الخواجات، وعانى من حبس الخبرة.. قام هو نفسه وتريس دولابه على العدد والمفاتيح ولم يجعل لنفسه صبيا من عمال المصنع، يحل محله.. والمفروض. أن يقوم بتدريب عدد من العمال على إصلاح الآلات وصيانتها. ولا يستأثر بذلك، ويحرص على خبرته حرص البخيل على أمواله. و«قال البلتاجى الفصيح»..

البطولة الحقيقية يا جماعة - والتضحية الموضوعية - يا جماعة - أن يكون الإنسان نبع وإشعاع.. يتعلم منه الذين حوله..

ولا يجب أن نفرح بأن الأسطى شعبان يجعل من الشغل بيته.. ويمضى فى المصنع معظم ساعات اليوم.. ما الفائدة؟

وقد حصر الخبرة فى يده.. الإنسان قد يشرب بق ماء فيشرق ويموت لساعته.. إنه يأتى فى أنصاف الليالى ليصلح الآلات.. بدون أن يطلب مقابل.. لماذا؟

والقانون يحرم على من يغادر عمله، أن يعود إليه بدون إذن.. والمثل يقول.. «لا تجعل منى شحاذا وتمنحنى كل يوم سمكة..

بل علمنى كيف أصطاد ..!».

.. ووجد كلام البلتاجى.. تشجيعا وتأييدا.. من نصف الحضور إلى حد التصفيق»!

* * * *

لكن البلتاجى. عندما استشعر بأن كلامه لم يجد آذانا صاغية بالكامل وأنه يصطدم بالآذان الصماء ومنهم من يرى البلتاجى «موظفا صغيرا» ومنقول من شركة أخرى لم تتاح له فيها الترقية (ترقى فى شركتنا وعلى حسابنا) كما لاحظ البلتاجى بأن - تعاطفا ما - يتصل بجهود الأسطى شعبان، الذى لا يهتم باجتماعاتهم ولا بما يريدون صنعه من أجله.. ونصفهم استقبلوا كلامه فى البدايات استقبالا.. حسنا.. وأحدهم.. ينبرى يتحدث، عن ماكينات المصنع ومعظمها.. انتهى عمرها الافتراضى.. ويقول:

الأسطى شعبان يصنع معجزة.. متواصلة.. بالإبقاء على تشغيل الماكينات.. على أى درجة من السرعة..

و«أشار آخر إلى أن قيمة هذه الآلات فى دفاتر الأصول الثابتة.. صفرا» فانقلب البلتاجى إلى الجهة الأخرى؛ «وبدأ يؤكد بأن ما ذكره لا ينقص من قدر الأسطى شعبان شيئًا..».

وقال:

- يا جـمـاعـة.. أنا أوضح لكم المسـألة، فـقط، ولكنى أطالب باسـتـثناء الأسطى شعبـان من مـواصـفـات الوظيفـة وتحـديداتهـا القـاطعـة.. وأقترح بـأن نجعل مـنه «رئيسا لأقسـام الصيـانة» أى فى درجة مدير إدارة.!

وتوقف الكلام.. للبحث فى التوصيفات المكتوبة.. والشروط التى تقف عندها الوظيـفـة.. فلم يجـدوا فـى مـصنع كـويرى النامـوس.. وجودا لتلك الوظيفة.. التى رصدت لتجمعات عدد من المصانع..!

وليس لمصنع كويرى الناموس وحده..!

فـاقــتـرحت اللجنـة إضـافــة مـصنـع النزهـة. الذى فى الـواقع، مـصنعـان صـغيـران مندمـجـان. وبذلك يمكن حل هذه المعضلة. وأن يكون مقر «وظيفته فى مكانه. وعمله الحقيقى تصليح الآلات.

ولكن الوظيفة - التى يجب «تسكينه» عليها. كان من شـروطها - عـدم إسنادهـا لغـيـر المؤهلين.. وقـد خـصـصت لحـملة بكالوريوس الهندسـة - أو المعاهد الفنيـة العـاليـة، والمتوسطة، بإضـافـة سنوات خبرة معتمدة..!

قال ذلك أحد حفظة اللوائح والبنود..

وإذا أصيبت اللجنة بالوجوم - سارع البلتاجى باقتراح جديد بأن يتغـيـر المسـمى من رئيس أقسـام الهندسـة والصيـانة - إلى «رئيس المصنع» - والتى تتضمن شروطها إمكان شغلها لغير المؤهلين..!

وذكر أمام المجتمعين «بأن الخواجة بانداليس كان يشغلها - ويشغل معها منصب مدير الإدارة الذى يترأس الموظفين.. ويضيف عليها منصب مدير عام الشركة»..

ونوقش هذا الاقتراح ووجد قبولا.. وتم كتابة المذكرة للمؤسسة. التى تنضوى الشركة ضمن شركاتها، وسريعا ما حصلوا على الموافقة، ومن ثم صدر القرار للأسطى شعبان.

«رئيسا لمصنع كوبرى الناموس»!

على أن يستمر فى القيام بعمله الروتينى فى إصلاح الآلات وصيانتها وعندما أثار (المدير العام) موضوع «ضرورة أن يقوم الأسطى شعبان بتدريب عددا من العمال الذى يختارهم له كمساعدين»..

أنكر الأسطى شعبان بأنه يشعر بتعب.. أو يحتاج إلى مساعدين من أصله.. وأكد بأنه يجد لذة فى عمله وكثيرا من المتعة.. وأنه وحتى.. عندما حمل لقب «رئيس المصنع».. سيظل كما هو الأسطى شعبان.. ولن يغادر مكانه فى ركن من عنبر الأكياس ودولاب العدد والمفاتيح معلقا على الجدار فوق رأسه - وأصر بالفعل على أن لا ينتقل إلى الحجرة التى جهزت له، بالمكتب والشانون والتليفون والمقعدين اللذان يتقدمان مكتبه، بينهما ترابيزة سطحها من الزجاج البلجيكى. وعلى مقدمة المكتب حامل - يحمل اسمه ويذكر وظيفته باللون الأحمر. «رئيسا للمصنع»!

* * * *

والأسطى شعبان، عندما وجد أنه محل نقد دائم، ولوم وتقريع، من الأسطوات - الذين ليس لهم حظوته.. والأفندية الذين تكاثر عددهم فى غرف (الإدارة) يحسدونه على وظيفته، ومزاياها.. لم يجد مناصا من أن يخضع للانتقالات الجديدة، ويتهيأ لأن يترك الركن الذى يلوذ به فى عنبر الأكياس. ولكنه ظل ينظر إلى دولاب العدة والمفاتيح. والذى صار مستحكما استحكامات خزينة النقود الحديدية.. ويفكر كيف ينقل هذا الدولاب البشع، خشن المظهر. إلى حجرة «رئيس المصنع» المفروشة بالموكيت، ومنعمة الجدران، ومزدانة بالبراويز للمناظر الطبيعية والآيات القرآنية..!

.. وكان عليه أن يترك العدد والمفاتيح لمن يختارهم من المساعدين وهو الذى لم يقتنع مطلقا بفكرة أن يكون له مساعدا..

والأسطى شعبان أخذ يفكر ويعيد التفكير.. حتى رسى على فكرة وحيدة سارع وذهب للقاء المدير العام لعرضها عليه «مادام يتمسك بأن يكون له مساعدا».

قال له:

- يا سعادة البيه أرجو الموافقة على تعيين ابنى سليمان - الحاصل على دبلوم التجارة الثانوى - والذى كان يحضر معى إصلاحات الماكينات، عند استدعائى فى الليل.. وكان يعاوننى ويلاحظنى. أنه الشخص الوحيد الذى يمكن أن أثق فى مهارته.. وهو الشخص الذى يمكن أن أمنحه خبرتى. وخلوص الماكينات. وأسرارها. وكما تعلم يا سعادة البيه المدير - كل إنسان يحب نفسه

ومن ليس له خير فى نفسه، ليس له خير فى أحد.. ولا حتى فى القطاع العام.. والمسألة أن - الأب - لا يرغب ولا يود أن يكون من هو أفضل منه إلا ابنه.. و«تلون صوته بالتوسل».

- عينو لى سليمان.. وسيكون خليفتى فى إصلاح الآلات.و..

و«لأول مرة أخذ الأسطى شعبان يتوسل.. وأمام صراحته. وكشفه لمكنون نفسه وتوسلاته للمدير.. وافق المدير العام على تشغيل سليمان فى المصنع على بند الأعمال المؤقتة - ووقعوا له على عقد يتجدد كل ستة شهور، بفاصل يومين أو ثلاثة ويكون له الحق فى التثبيت إذا وصلت للمصنع موافقات المؤسسة بالتعيين..!

وصار «سليمان» مساعدا لأبيه.. حل محله تحت دولاب العدد والمفاتيح، على نفس المقعد، فى ركن عنبر الأكياس، وانتقل الأسطى شعبان إلى غرفة رئيس المصنع المجهزة.. صورة مصغرة من غرفة مدير عام الشركة..

وسليمان ابن الأسطى شعبان. كان صورة طبق الأصل من والده. ولكنها الصورة المودرن.. التى ترتدى البنطلون مكويا، والقميص غاليا.. ويأتى إلى العمل فيخلع ملابسه ويرتدى ملابس العمل التى يرسلها للغسيل كل أسبوع.. فى يوم الأجازة.. كما أنه لا يضع على صلعته طاقية.. وقام (سليمان) بتطوير الركن فى عنبر الأكياس، وجعل منه شبه ورشة صغيرة. أبقى على الدولاب الخشب المعلق على الجدار.. وحصل على بنك ومزربيطة، ومثقاب، ومكشطة، ومخرطة صغيرة.. وكان يحضر لوالده قطع الغيار.. أو يقف معه أحيانا ليعاونه فى إصلاح الماكينات المعطلة..».

ولما كان العمال يذكرون (الأسطى شعبان) كان العمال الخبثاء منهم يضيفون على اسمه «وولده سليمان» كما يقرأون لافتات محلات البقالة والمانيفاتورة «لصاحبها» فلان الفلانى وولده فلان..!

* * * *

والأيام.. سرقت الأسطى شعبان..

وفوجئ بقرار الإحالة إلى المعاش لبلوغه السن القانونى. وركبه الهم والغم، وحاول أن يمد لنفسه سنة وراء أخرى.. كما يفعل بعض المحاسبين، أو الخبرات الفنية النادرة..!

لكنه أخفق.. وصدم بجدار القوانين والتنظيمات التى يجب أن تتيح الفرص للأجيال الشابة. «بأن تحمل الراية وتواصل المسيرة».. على حد قول «البلتاجى» الذى يحفظ عبارات كاملة من «الميثاق» بدون لحن أو إضافات تغير المعنى..!

وأمام إلحاح الأسطى شعبان.. تقدم المدير العام للجنة شئون العاملين باقتراح.. أن يحل (سليمان) مكان والده (شعبان) لصالح العمل.. ولخبرته بالماكينات القديمة.. وهى خبرة منقولة من والده.. نقل مسطرة!

* * * *

وأسفر اجتماع اللجنة ومناقشة الاقتراح - بأن ذلك مخالف للوائح العمل ويترتب عليه، غبن يلحق بالصف المتقاطر خلف

الأسطوات القدامى، ومع أن المدير العام - كان قد دهش من تفكير الأسطى شعبان واعتبار - العمل فى القطاع العام.. وكأنه عمل فى القطاع الخاص، ضاربا بالإشراف الحكومى عرض الحائط اضطر أن يخبره بأن الوظائف لا تورث كالعقار - المدير العام أعلن اعتراضه الشكلى لوقف الألسنة الحداد. وشعر بالراحة أنه أخفق حتى تتوقف جهود الأسطوات عن اعتباره المطية للأسطى شعبان..!

وفصل المدير العام بين إعجابه.. بالأسطى شعبان.. ومحاولة تنصيب ابنه سليمان فى مكانه - واشترط - إذا كان «سليمان» يريد أن يصلح الآلات فليفعل، وهو فى الوظيفة التى تناسب وأقدميته ومؤهله.. وليس وهو فى وظيفة (رئيس المصنع) - وهو الشاب صغير السن لا يجب أن يترأس أسطوات أكبر من والده.. «عيب»!

واستجاب المدير العام - بضرورة - تعيين المهندس كمال حسنين للصيانة، وهو مهندس خريج كلية الهندسة.. ويعمل تحت يده «سليمان ابن شعبان» وفنى آخر ليتشربا الخبرة..!

وبرغم احتجاجات الأسطى شعبان وإلحاحه. والإشارة بأنه يرعى آلات المصنع.. وإذا ما تركها، ستنهار آلة بعد أخرى.. وسيتوقف المصنع عن العمل..!

فقد قال أحد الأسطوات الذى يتطلع «لرئاسة المصنع» بعده:

- مادام قد تم تعيين مهندس فلا داع لوجود سليمان بن شعبان.. حتى لا يفسد ما يفعله المهندس.. ويظهره بمظهر العاجز..!

وإذا تناهى هذا القول لسليمان.. انقطع عن العمل عقب إخلاء طرف والده.. إذا لم يكن له شيء من (كـــرامـــات) والده. على الشركة.. فلم يهتم به أحد..

وقالوا: أن الأسطى شعبان كان بخيلا حتى على ابنه وكان يعلمه بالقطارة.. نقطة نقطة..!

وفيما يبدو أن السادة المسئولين، كانوا يدركون أهمية أن تبقى آلات المصنع تعمل - متعكزة على طاقتها العرجاء..

و«الثورة» دخلت فى طور التحدى.. واهتمت بتسليح الجيش.. أكثر من تبديل دولاب الصناعة القديم!

ولعل هذه التحديات أثيرت ضدها من أجل ذلك..

وما هى إلا فترة زمنية قليلة.. حتى بدأت الأعطال تتوالى وتصيب آلات المصنع.. واحدة.. إثر أخرى.. والمهندس كمال كان يستخدم الأسلوب العلمى.. هو الذى درسه فى كلية الهندسة.. ولكن هذا الأسلوب العلمى.. هو الذى تسبب فى توقف عدد من الآلات.. تماما عن العمل!

فالمهندس الشاب.. كان يفك الماكينة ويعالج العطب.. ولكنه إذا قام بإعادة تركيب الماكينة فلا تعمل.. وقال:

«الماكينات القديمة لا تخضع للأسلوب العلمى تماما كالعقليات القديمة تخشى كل جديد» وبدأ - الأسطوات والمديرون والرؤساء. يذكرون مهارة الأسطى شعبان. ودرايته.. بالخلوص بين التروس..

وعـلاج الآلات القـديمـة التى تحفـر لنفسـهـا حـالة خـاصـة.. أثناء التشغيل لزمن طويل.. لا يخضع للعلم ولا للميكانيكا..!

ويستجيب فقط للمحايلة.. والعلاج باللصق وبالأدوات التى لا تخطر على بال مخترع هذه الماكينات.. والمهندس كمال فعل كل ما فى جعبتـه.. ولم يفلح.. وأعطال المصنع تتزايد.. ووصلت الحـالة لرئيس الشـركة.. ومنها إلى رئيس المؤسسة.. ثم عادت «التعليمات» مشددة إلى المدير العام بضـرورة أن يحل هذا الموضـوع على وجـه السـرعـة.. دون أن يكبـد الدولة - أية مـصـاريف إضـافـيـة - وعن الإشـارة بضـرورة شـراء آلات جـديدة التى ذكـرها المهندس كـمـال حسين اتهم قائلها..

«بالجنون والبله»!.

وعـاد المدير العـام. لجـمـع الأسطوات واللجنة القـديمـة، ومن أضيف عليها من الجدد - ليبحثوا له عن حل عاجل وسريع.

وفى البداية ألقى على الجميع تساؤلاته:

- هل للأسطى شعبان.. مناصرين بين العمـال يفسـدون الآلات لصالحه؟

هل يوجـد بين الأسطوات القـدامى من يـريد إظهـار المهندس كمـال فى صورة الرجل عديم الخبرة؟!

وجاء النفى من الذين يعرفون الأسطى شعبان وولده سليمان..

قاطعا ومعضدا لأخلاقه ومبادئه..!

كما تم النفى بأن يكون للأسطوات القدامى مصلحة فى ذلك..

واستمر الاجتماع منعقدا.. حتى يذهب المرسال إلى الأسطى شعبان.. ويأتى به.. أتى الرجل بجلبابه الرصاصى.. وطاقيته البحراوية على قمة رأسه وما طرأ على الرجل، أن شاربه الهتلرى المربع، صار رصاصيا، بفعل الشعر الأبيض المتكاثر فيه..

وفى أعقاب الرجل، جاء ابنه سليمان.. وجلسا متجاورين على ترابيزة الاجتماعات. ولم يعلن أحد عن وجود «سليمان»..

واعتبروه من ملحقات والده - فقد ثبت بأن سليمان بدون شعبان.. أفضل له أن يعمل بدبلوم التجارة.. ومع ذلك أجلسوه مع والده على ترابيزة الاجتماع الكبيرة وقال الأسطى شعبان وهو ينظر بعينيه الصغيرتين فى الكم الهائل من الرؤساء.. «أيام الخواجات - المصنع كان موظفيه ثلاثة أحدهم مدير المصنع..».

قال ذلك وهو يزيح الطاقية إلى الخلف ويهرش فى صلعته المستطيلة.. وعندما واجهوه بأنواع من الابتسام استطرد:

- «بارك الله فيكم.. لقد صار عدد الموظفين أكثر من عدد العمال الذين يعملون على الماكينات» وابتلعوا هزره الثقيل.. وانتقلوا إلى عرض حالة المصنع والأعطال التى تسببت فى وقف آلاته بعد إصلاحها بالطرق الهندسية الحديثة.

وقال الأسطى شعبان:

يا جماعة آلات المصنع قديمة. قديمة جدا وطالما هى قديمة..

فهى من اختصاص الأسطى شعبان و«خبط بكفه على صدره» أما إذا أحضرتم آلات جديدة فهى ستأتى بالكتالوجات.. وستكون من اختصاص المهندس كمال حسنين.

و«أشار إلى المهندس الذى كان قد أطرق ينظر فى طرف الترابيزة فانتبه - وقال المهندس كمال:

- هذا الكلام قلته.. وها هو الأسطى شعبان يؤكده.. ضرورة شراء آلات جديدة.. لنأخذ منها.. إنتاجا كثيرا وجيدا..

وقال الأسطى شعبان:

- هذه الآلات القديمة.. أشبه بمتشرد ينام فى العراء، وعلى الأرصفة فيصاب الإنسان بالاتساخ الشديد والجوع الدائم.. إذا عطفت عليه، وصحبته إلى منزلك وأزلت عنه الوسخ.. وأطعمته وسقيته،، سريعا ما يمرض ويموت، فالعراء له أولاده - والبيوت لها أولادها..!

وصمت المجتمعون وأداروا وجوههم فى اتجاه الأسطى شعبان ينتظرون قراره النهائى.. أن يتقدم بإصلاح الماكينات التى لم تستجيب لعلم المهندس كمال حسين. وانتظروا أن يقول: عينوا ابنى سليمان فى مكانى بنفس المزايا والراتب. رئيسا للعمال».. هكذا توقعوا أن يساوم..!

لكنه وقف فوقف ابنه سليمان - أمسك بمعصمه وانخلع به من دائرة الاجتماع.. أزاح الطاقية وهرش رأسه وقال:

تنتظرون مـشــورتى.. الآلات القـديمـة لا تعـالج إلا بالطرق القديمة.. أما وقد تم فكها.. فهى لن تعود إلى حالتها مطلقا.. وأنا لن ألقى بابنى فى التـهلكة.. أنه دبلوم تجـارة.. لن يعـمل إلا فى مجاله.. والمهندس كمال.. أنفع لكم.. فى المرحلة القادمة».

والمدير العـام.. كان صـدره يضيق وينفخ فى الهواء.. وهو ينقـر على الملف الذى جـهـز به القـرار.. «استـدرك..» فـاسـتـغـفـر الله العظيم..

إبراهيم «ماشى»
وإبراهيم «قاعد»

بين العاملين فى «شركتنا» حمل «إبراهيم محمود سعد» لقب إبراهيم «ماشى»!

إذا أنه كان لا يكسر لأحد من الرؤساء طلبًا - يطلبونه منه - ويقول إثر كل طلب يطلبونه «ماشى» بل أنه يقول لمن يزيدون عيار الطلبات «مشى الحال» ولمن لا يضع فى ذهنه رد الجميل «خل حالك يمشى» ولأنه أمين خزانة «المنطقة».. وبيده فلوس «السلفة المستديمة» وبإمكانه أن يقرض العاملين «شيئا» أو أن يعجل بصرف مستحقات ومتأخرات مالية. حتى قبل أن يصرف الشيكات فهو الذى يتسلم إيراد فروع البيع، ويذهب به إلى البنك للإيداع.. وفى استطاعته أن «يعطى» أو «يؤخر» «العطاء» إلى أى وقت يحدده.

صار لإبراهيم «ماشى» نفوذه الذى بات يخشاه العاملون، وحتى لا يغضب عليهم، توقفوا عن تلقيبه بإبراهيم «ماشى».. وعادوا به إلى اسمه الأصلى «إبراهيم سعد»

لكن القدامى من العاملين لا يزالون يفرقون بين إبراهيم محمود سعد - «المسلم» - وإبراهيم محروس سعد - «المسيحى».. باستخدام لقبه القديم.. «ماشى» أما إبراهيم سعد المخزنجى.. فكان يلقبونه بإبراهيم طواقى.. أو إبراهيم «قاعد» للتفرقة بينه وبين «ماشى» وإبراهيم ماشى كان يشغل وظيفة أمين الخزانة الرئيسية بالمنطقة منذ سنوات طوال.. إذ إنه منذ تعيينه كان أمينا لخزانة أحد فروع البيع.. وبدأ العمل مع «الفلوس» مبكرًا وتمت ترقيته، فصار أمين الخزانة الرئيسية فى المنطقة.

وبرغم مرور أكثر من عشرين عامًا.. وإبراهيم ماشى لم يحاول الانتقال إلى وظيفة أخرى.. أعلى، مع أن - مؤهلاته - كافية ليترقى.. ويصبح من الرؤساء.. ووظيفته الحالية فى الظاهر والباطن، محملة بالأعباء التى يقوم بها ولا يشكو منها، حتى.. أنه لم يعد يحصل على «رصيد أجازاته السنوية، ولا يهتم بأن يشطب من رصيد أجازاته.. الستة أيام الجبرية.. دون أن يقوم بهم، حتى وهو مريض.. كان يتواجد فى عمله، لبضع ساعات. ينهى فيها أعماله. ولا يعطى الفرصة «لأحدهم بأن يحل محله.. ويطلع على أسرار وظيفته!

وصار من المعلوم - للجميع - أن إبراهيم ماشى.. يخشى كشف المزايا التى يتمتع بها فى وظيفته، والتى من أجلها يصبر ويتحمل شقاء هذه الوظيفة التى تجعله يتعامل مع كل العاملين فى المنطقة.. ليس أقل من خمسمائة عامل وموظف.. بجانب العملاء الذى يتصل عملهم بالخزانة.. وبعضهم يصرفون مستحقاتهم من السلفة المستديمة!!

و«إبراهيم» فى عمله صار خبيرًا ومستمتعًا. ولكنه لا بد وأن يحيط نفسه دائما بالشكوى.. على أساس أن «فى الشكوى، رقوة».. ضد الحاسدين والنقاقين!!

ومدير عموم المنطقة رصد حالته، ورأى الاستفادة منه.. فحاول نقل «إبراهيم ماشى» من وظيفته كأمين خزانة إلى «رئيس قسم الشئون المالية» على أساس أن إبراهيم - «منظر» - فهو يعمل مرتديًا بذلته الكاملة فى الشتاء من الصوف. وفى الصيف من الفريسكا والترلين.. ورباط العنق - دائما - معقود.. وإبراهيم «ماشى» من طبعه أنه - مطيع ومؤدب - وتمكن من الحصول على بكالوريوس التجارة من جامعة الإسكندرية مستفيدًا من إحدى مزايا - «حرب أكتوبر» - التى أتاحت لمن خدموا فيها الالتحاق بالجامعات.. دون التقيد بالمجموع. أو السنة الدراسية المقررة. فاستفاد إبراهيم من الثانوية العامة ذات المجموع المتدنى التى كان يحملها.. وفى أربع سنوات انتساب صار يحمل الشهادة العالية.. واعتقد المدير العام

أنه بذلك يقدم ـ لهذا الصنف من الموظفين المجتهدين المطيعين ـ «خدمة» يستحقونها وسيشكرونه عليها..

وعندما فوجئ إبراهيم ماشى بنقله إلى رئيس قسم ـ تمهيدا ـ ليصبح مدير إدارة.. جن جنونه وقاوم النقل وكأنه سينزل به درجة! والمدير العام ركب رأسه.. وأصر على نقله والاستفادة من مؤهله..

لكن إبراهيم ماشى.. ساق على المدير العام، كل من يُخدم عليه، فى المسائل المالية.. حتى أوقف.. تعنت المدير ضده!!

وسنكر إبراهيم «ماشى» على نفسه فى هذه الوظيفة ومزاياها ـ التى يقلل من شأنها دائما ـ ولكن بات من المعلوم أن إبراهيم ماشى.. يتمتع ببدلات الوظيفة بجانب أربع مأموريات على الأقل بين مقره بالإسكندرية والإدارة العامة بالقاهرة.. المأمورية مصحوبة بمزايا مبيت ليلة أو عدة ليال.. وبدل مواصلات داخلية.. والذهاب والعودة بالقطار المكيف.. يستبدله.. بالثانية العادية، وليس هذا فحسب.. ولكن إبراهيم أعتاد أن يقدم الخدمات فى مأموريته.. وكل من يقدم له خدمة.. يضع فى عينه حصوة ملح، أثناء صرف ـ فلوسه ـ وحتى الذى يصرف لهم المرتبات.. لابد وأن يتغاضوا عن «الفكة» وإلا انتظروه.. يومان على الأقل حتى يتمكن من صرف «الشيك» على راحته.. ولم يعد ـ إبراهيم ماشى ـ الذى أصبحت كلمة «ماشى» اسما على مسمى عليه ـ وعمليًا أمست.. أهم سماته، يهتم بأن يصير رئيسا.. أو مديرا، أو أن يتقول عليه المتقولون.. فالناس تتكلم على الفاضى والمليان.. وبين هذا وذاك..

تضيع الحقيقة.. أو يمكن أن يتحمل الغمزات واللمزات.. فى هذا الطوفان من المزايا الخفية!

لكن ما كان يحدث كل عام.. لإبراهيم ماشى.. أثناء توزيع إخطارات الإقرار السنوى بالكفاءة.. تلك الإقرارات التى توضع بطريقة سرية.. كان يقلب حياة إبراهيم ماشى.. إلى جحيم لا يطاق، لعدة شهور.. أو لعدد من المأموريات، يخصصها لإنهاء «مشكلة تقريره السنوى».. الذى يأتى إليه بتقدير «متوسط»

بينما هو فى الواقع يبذل قصارى جهده.. فى عمله.. ويرى بأنه يستحق «الممتاز»!

وما كان يشعل غضبه أكثر. أن إبراهيم «طواقى» والملقب أحيانا بإبراهيم «واقف» والمسمى «إبراهيم محروس سعد»

كان يحصل على (الممتاز). وهو مركون فى مخزن الراكد فى ذلك المنفى.. الذى ينفى إليه الكسالى، والمغضوب عليهم من موظفى الشركة وفى ظن إبراهيم ماشى أن - «الممتاز» - التى تذهب إلى إبراهيم «واقف» هى من حقه هو ، وأن خطأ ما.. يحدث فيصل إليه تقدير المتوسط..!

والشركة دماغها فى شارع شمبليون بالقاهرة.. وباقى جسمها يتوزع فى المحافظات المختلفة.. والخطأ وارد. وبذلك «إبراهيم ماشى»... تجمد فى الدرجة الثانية.. مع أن معظم أمناء الخزائن الرئيسية. حصلوا على الدرجة الأولى.. وفى الواقع - إبراهيم

محمود سعد «ماشى» كان ـ يختلف اختلافًا بينًا عن إبراهيم محروس سعد «واقف» ـ والذى كانت المراكب السائرة ـ بين يديه ـ تتوقف عن الإبحار نحو مرافئها.. وهو الرجل الذى يحمل دبلوم التجارة. وكان يعمل بائعا.. والناس تعرف بأنه يخاف من خياله.. وبمرور الوقت فقد مهارته فى البيع.. وخصوصًا وأن أى خطأ حسابى كان يخصم من مرتب البائع.. الأمر الذى جعله ينكمش حتى انتهى به الحال ـ موقوفًا ـ فى أحد المخازن للمواد الراكدة.. على الدرجة الثالثة.. بدون أمل فى الترقى. فصار يقضى وقته الطويل الممل ـ فى صناعة الطواقى الصوف الشبيكة.. ويرسل بها من الإسكندرية إلى زملاء العمل فى دمنهور وطنطا والمنصورة.. لتباع هناك لحسابه لتحقيق مزيد من دخله الحلال، ولا يقوم بتوليد البضاعة، أو سرقة شىء مما تحت يده.. وهو الذى تزوج مبكرًا.. وأنجب زربة عيال!

ونقطة التماس.. بين إبراهيم.. وإبراهيم.. فى تشابه الأسماء.. وقد أدى ذلك إلى شىء من الخلط.. لسبعة أعوام متوالية. يحصل «إبراهيم محروس سعد» على تقدير تقرير الكفاية الخاص بإبراهيم محمود سعد ـ الذى يفاجأ بأن تقديره ـ متوسط ـ والجميع يقسمون له بأنهم منحوه الممتاز المرتفعة، وأنهم مستعدون للشهادة، بل وإعادة كتابة التقرير السرى..!

وإذا ما رفع شكواه وتظلمه إلى ـ الرأس ـ بالقاهرة.. قامت «لجنة التظلمات» بإخطاره.. بتقرير جديد ـ زينته بالممتاز ـ فيهدأ..

ولكنهم فى الواقع لا يقرون بالخطأ - ويبقى لإبراهيم محروس سعد.. ما حصل عليه.. مع أن إبراهيم محروس سعد مركون فى أحد المخازن.. مشغول بنسج الطواقى.. ولا يحقق بندًا واحدًا مما تشترطه بنود الممتاز.. من يقظة وابتكار ومبادرة.. وحضور قبل العاملين وانصراف بعدهم.. واعتبار الشركة - هى بيت العائلة..!

وكما يقول الأستاذ عبد الصمد:

- ربك رب قلوب.. هو الخالق للمسيحى والمسلم!

على أثر توالى سنوات الممتاز.. تأتى لإبراهيم محروس سعد - ترقية استثنائية.. ثم ترقية عادية.. مع صرف علاوة استثنائية فى السنة الخامسة من الممتاز.. مع شهادة تقدير.. فالرؤساء فى القاهرة - لا يطلعون إلا على أوراق الملفات للعاملين بالإسكندرية.. مثلهم مثل القضاة، فى زحام القضايا.. وقد اعتادوا كلما رقوا - بعض العاملين - الترقيات الاستثنائية بالذات، تلقوا سيلا من الشكاوى الكيدية ضدهم.

وإبراهيم.. «ماشى» عندما وجد إبراهيم (طواقى) قد ترقى إلى الدرجة الأولى.. جن جنونه..

فهو الذى يخدم طوب الأرض.. ما بال الطوب.. صار زلطا يقذفونه به؟تبين أنهم عندما كانوا - يراضونه - ويعدلون له التقرير السنوى.. يعدلون الإخطار الذى فى حوزته.. حتى يكف عن

الشكوى.. أما الإخطارات الأخرى الموزعة فى الملفات، فإن تعديلها، يسحب معها الإقرار بالخطأ أساسًا.. وبعض الخبثاء يقولون إن الله يمهل ولا يهمل»

وهم يعنون بأن إبراهيم محروس وقد ركنوه فى ظل المخزن ببضاعته الراكدة «وأوقفوه».. بذل الجهد فى نسج الطواقى.. والكسب الحلال.. بينما إبراهيم «ماشى».. كان مشيه فى الكسب الحرام.. كالإكس إبريس!

وبتسليط الضوء على المفارقة بين الإبراهيمين اضطر - إبراهيم ماشى.. أن يقدم طلبًا - ضمن الطالعين إلى المعاش المبكر.. فقد ضاق بالشركة التى يبذل فيها الجهد مضاعفا ولا يكافأ..

وعند إخلاء طرف إبراهيم ماشى.. كان إبراهيم طواقى يحضر.. ضمن اللجنة.. كمستلم للخزانة الرئيسية.. «ويدعى» بأن الترقية-جاءت له بالمشاكل.. وربنا يساعده فى شغل الخزانة الذى كله مسئوليات.. وإذا ما قيل للمدير العام.. إن إبراهيم «طواقى» غير كفء لهذه الوظيفة.. وأنه سيوقف الحالات الاستثنائية رد عليهم - لكنه فى الدرجة الأولى.. ويده نظيفة.. كان يصنع الطواقى ولا يسرق الشركة.. لعلكم تتذكرون عندما حاولت ترقية إبراهيم «ماشى».. ولم يقبل.. كنت أتساءل.. لماذا يرفض الترقية؟ وكشف نفسه.. دون أن يدرى !

إبراهيم«واقف» تسلم العمل.. وظهرت مهاراته فى إدارة الخزانة بكفاءة.. وكأنه ولد.. ليكون أميناً للخزينة.. والعمال تقربوا إليه بالفكة.. فكان يحاسبهم بالمليم.. وجرب العمال معه - طرق أخرى ليخدمهم - فوجدوه لا يقبل النقود« الحرام».

ولكنه يقبل الهدايا« الحلال» !!.

ويبرر ذلك «بأن النبى قبل هدية المقوقس!!».

الحقيقة والخيال فى حياة
أحمد كرامتى. وزوجته كوثر

.. أبلغنى الأستاذ عبد الصمد.. بأن زوجة أحمد كرامتى.. تنتظر فى مكتب الاستعلامات.. وتود أن تلتقى بى لأمر هام وعاجل.. ونظر نحوى نظرة يسأل بها . هل يدعها تدخل إلى مكتبى؟!

وعندما حملقت فيه مستفسرًا..

هز رأسه وقال: آه.. الست كوثر. الست كوثر..!

وتشاغل فى عمله الذى كان يمكن أن يؤجل النظر فيه وابتسامة . لها معنى . ترف على شفتيه!

انزعجت.. ورحت أتساءل.. عما تريده الست كوثر.. زوجة . زميلنا فى الشركة.. أحمد «كرامتى» الذى هو. «أحمد على

فرغلى».. حامل دبلوم التجارة، والذى اشتغل فترة فى إدارتى موظفًا.. قبل نقله تأديبيًا «وتكديرًا».. للعمل فى المصنع.. وقد حدث ذلك على إثر اختفاء آلة حاسبة مستوردة كنا نستخدمها فى وحدة الأجور والمهايا.. أسفر التحقيق معه بتحميله ثمنها ثلاثمائة جنيه خصمًا من راتبه الشهرى بالإضافة إلى توقيع جزاء أجر خمسة أيام.. تستقطع من راتبه.. لإهماله فى ضياع الآلة مع أن كل الشواهد تنبئ بأنه خرج بها من إدارة الشركة.. وهى أصول ثابتة عهدة على عبد ربه كبير السعادة ومع ذلك ترأف المحقق.. أمام دموع أحمد فرغلى وسلسلة الحلفان بالمقدسات - بأنه - لم يشاهدها من أصله.. ولم يخرج بها من باب الإدارة.. مكتفيًا باتهامه بالإهمال، والتسبب فى ضياع الآلة..

والمحقق.. كزميل قديم.. وضع فى اعتباره.. حياة أولاد «أحمد فرغلى».. الصغار.. فلم يوجه له الاتهام صريحًا، وإلا تسبب فى قطع «عيشه» وإنهاء خدمته فى الشركة.. التى هى شبه حكومية..!

والجميع.. يعرفون أن.. أحمد فرغلى.. يعيش على الأوهام التى ينشرها حوله.. حتى بات يصدق تلك الأكاذيب التى يختلقها.. بأنه من عائلة ميسورة وأن أعمامه رجال أعمال.. ويتمنون أن يوافق ويشير بإصبعه بأن يعمل معهم.. ويكون له «مكتب تصدير واستيراد». وينتقل من كونه موظفًا بالقطاع العام بأجر ضئيل، إلى أن يكون مليونيرًا.. مثل المليونيرات الذى يغرم بجمع تفاصيل حياتهم وما ينشر عنهم.. ويحفظ أسماءهم وبعضهم مليارديرات أجانب أو عرب..!

ومنذ حدث الانفتاح ـ أدخل أحمد فرغلى ضمن المعجب بهم مليونيرات جدد مصريين.. يتعامل معهم.. كما يتعامل الهواة مع نجوم الفن والأدب.. بنفس التشوق.. يتابع ما ينشر عنهم، ويتحدث عن أخبارهم.! وأحمد فرغلى.. الذى يكثر من ترديد كلمة «كرامتى» يحشرها فى معظم أحاديثه.. كلازمة له..

«كرامتى لا تسمح» ـ «كرامتى قبل كل شىء» ـ «كرامتى يا جماعة». حتى أطلق عليه العاملون فى الشركة.. من باب التندر «أحمد كرامتى»

كثيرًا ما كان يمرمغ ـ كرامته ـ فى الطين وتحت الأقدام!

* * * *

فيما يبدو أن أحدهم نصح «أحمد كرامتى» ـ بأن فى الحركة بركة.. والحركة هى التى يمكن ن تنقله من كدر الموظفين.. إلى كدر المحظوظين..

فقد دأب على استنفاد أجازاته السنوية والعارضة فى السفر على جناح تاجر شنطة.. إلى اليونان، وإيطاليا ليشترى التاجر باسمه.. ثلاجة أو بوتاجازًا.. أو تليفزيونًا.. وأحيانًا.. يأتى على جواز *سفره*.. بسيارة مستعملة..

وذلك مقابل مبلغ يتراوح ما بين المائة.. والخمسين جنيهًا. بجانب أن ـ التاجر ـ يتحمل مصاريف *سفره*.. ونثرياته.. التى يمكن بها ـ أحمد كرامتى ـ من شراء بعض الملابس «المستوردة» والتى

سيتباهى - بها -وهو يرتديها بين العاملين.

.. ولا ينى يذكر أثمانها الغالية فى باترينات محلات الإسكندرية. وأحمد كرامتى. قليل الجسم.. إذا ما ارتدى الملابس المستوردة وهى عادة التيشرت والبنطلون الجنز والكوتشى.. ووضع على عينيه النظاره الريبان.. وفى رقبته السلسلة الذهبية.. وفى رسغه الساعة المعدنية الحديثة، انسيال من الفضة، أو المعدن الأبيض.. كان مظهره لا يمكن أن تفرق بينه وبين شباب النوادى من الفئات العليا..

كما أمكن له بهذا المظهر المقرون بجملة من الأكاذيب المتساوية.. أن يصادق «بعضهم».. فيرتاد.. نادى سبورتنج مرافقًا.. ويمضى وقته المتاح فى كبينة المعمورة.. أو فيلا فى الساحل الشمالى.. ثم يتقمص شخصية من الشخصيات التى يتعرف عليها.. وينسج على منوالها تاريخه الشخصى.. منفصلاً عن حارة غزالة الضيقة.. بباكوس.. ومعاركه المتوالية مع زوجته كوثر.. وهروبه الدائم من مسئوليات البنتين.. كطفلتين فى حاجة إلى الانفاق.. والحضانة.. والعلاج.. والرعاية

وكثيرًا من الأكاذيب التى يطلقها أحمد كرامتى. كان يصدقها.. تحلق قليلاً.. ثم تهبط اضطراريًا.. فى الإدارة.. وشئون العاملين بالذات..! يسألون عن أحمد بيه فرغلى الذى يعمل مديرًا ماليًا.. أو.. مديرًا إداريًا.. وكنت بنفسى استقبل المكالمات التليفونية.. وأكتفى بأن أقول لسائل بأنه «انصرف منذ قليل».. أو «انتظر حتى

أسأل لك السكرتيرة».. وأضع يدى على سماعة التليفون.. وأقلب أمر هذا المحتال مع الأستاذ عبد الصمد.. الذى كان يجد فى ذلك مادة للضحك وكسر الملل..

لكن عندما ادعى - أحمد كرامتى - بأنه يقوم بتحضير الدكتوراه فى إدارة الأعمال.. ومنتدب لتنظيم شركتنا.. بالإسكندرية..

فقد طلبت من الاستاذ عبد الصمد - أن يضع حدًا لأكاذيب أحمد كرامتى.. وإلا فضحناه أمام أصحابه..

وكان - أحمد كرامتى يصدق نفسه - ويذهب إلى الجامعة بالشاطبى.. ويجلس فى الكافيتريا.. فيشاهده هناك.. عدد من العاملين المكافحين المنتسبين إلى الجامعة.. يدعوهم إلى شراب.. ويبلغهم أنه فى انتظار (دكتور) بإحدى الكليات.. «صديقه جدًا»

وأحمد كرامتى. على شىء من الوجاهة.. ويقص شعره على الموضة ولوجاهته وملابسه.. وحتى أكاذيبه، تأثيرًا خاصًا.. لأول وهلة، وثانيها ، وثالثها. فأنت قد تصدق كل ما يدعيه.. وإذا اكتشفت أن - إحدى الأكاذيب بدون «رجلين» أقنعك فورًا بأنك أنت الذى أخطأت فلم تلحظ كيف كانت تعدو بسرعة فائقة..!

ولكن ليس فى كل مرة كانت تسلم الجرة.. فقد تعرض أحمد انعد
كرامتى لعدد من الحوادث المتكررة التى كسرت «الجرة» وكادت أن تودى به إلى غياهب السجن.. المؤبد..

عندما قام بتهريب كيس من البرشام المخدر فى جيوب سرية

بحقيبته «الهاند باج» فى إحدى سفرياته ولحسن حظه يطمع «المفتش» فيما كان معه.. ويؤدى ذلك إلى أن يطلق سراحه.. إذ إن الكمية التى قدمت كدليل.. كانت قليلة جدًا.. فدخلت تحت بند الاستخدام الشخصى.. مما جعل المحقق يتأثر - بشخصيته على اعتبار إنه - ابن ناس ولا يجب أن يتعامل مع أولاد الناس بقسوة القانون.. من أول خطأ!

لكن ما تعرض له «أحمد كرامتى» من ضيق وبهدلة أثناء إلقاء القبض عليه، وحبسه بتخشيبة الميناء.. كان أشد وأقسى من يصدق أكاذيب نفسه..

* * * *

وفى المصنع.. عمل أحمد فرغلى مراقبًا لوقت.. فكان يبيع الأجازات ويخفى التصريحات.. ويزور فى التأخيرات.. مقابل ما يمكن أن يحصل عليه من العمال الذين يعملون - بجانب عملهم فى الشركة - فى أعمال أخرى تساعدهم على المعايش!

حتى فاحت رائحته.. وأمكن ضبطه متلبسًا بالتدليس.. وهو إذا سقط.. بكى وتوسل، وقدم بنتيه الطفلتين ومصيرهما على ورق التحقيق، وهنا ترق القلوب.. ويتدخل الرؤساء، وأصحاب الدمعة الحاضرة.. ويفلتونه من المأزق.. بنقله إلى عمل آخر.. يشترط أن يكون بعيدًا عن التعامل مع الجمهور أو الأموال.. أو الوقت.. أو أى منافذ يمكن أن ينفذ منها بأساليبه الملتوية ويستغلها لصالحه!

حتى استقر أخيرًا فى عمل . يدخل تحت بند أعمال السعاة ... إذ أنه عمل «تشهيلاتى» بين الإدارة الفرعية بالإسكندرية.. والإدارة العامة بالقاهرة.. يشهل المطلوبات والمتأخرات بين الإدارتين.. ويقنع بفرق قيمة بدل السفر . عندما يسافر فى قطار الدرجة الثالثة المزدحم، ويحصل على أجر قطار الدرجة الثانية.. كما يحتسب له مبيت . ليلة . أو عدة ليال إذا استبقوه لتوصيل أعمال عاجلة ومناقصات.. كما يحتسب له «مواصلات داخلية» يمكن أن يفبرك منها لكثير بين الإدارات المختلفة والمتباعدة.. على أساس أنه يحمل شيكات وأوراق هامة لابد وأن يستقل تاكسى خوفًا عليها من الضياع!

وفى كل الأحوال كان أحمد كرامتى، نحيفًا ويمشى كثيرًا.. ولو كانت المسافة بين الإسكندرية والقاهرة مقدور عليها، لمشاها..!

فهو إذا احتاج للنقود يفعل أى شىء

وكوثر . زوجته . موظفة قليلة الشأن.. تعمل فى وظيفة كتابية فى وزارة الصحة.. ومع ذلك . أنيقة الملبس، وتذهب إلى الكوافير . وهى مثله . تبدو أنها.. من سكان المناطق التى تقع شمال شريط الترام.. ولا تمت إلى جنوب شريط الترام.. وشريط السكة الحديد، وحارة غزالة، بصلة تذكر.. وقد أنجب منها طفلتين..

وفيما يبدو أن الزوجة بعد كذا سنة من المعاشرة الزوجية لزوجها.. تصير شكلاً.. وموضوعًا.. مثل زوجها.. فهى عندما كانت تأتى إلى «الشئون الإدارية» . لتشكو من زوجها.. بحثًا عمن

يساعدها - فى حجز جزء من مرتبه لها - أو إقناعه بأن يخصص لها ما تنفقه على بنتيها بعيدًا عن وسائل البوليس والمحاكم.. كنت أعتقد بأنها قريبته.. ابنة خالته مثلاً.. ومرتب أحمد فرغلى.. كان دائمًا محملاً بالديون والاستقطاعات والسلفيات..!

* * * *

كان أحمد كرامتى.. قد حصل على مكافأة المعاش المبكر.. ما يقرب من الثلاثين ألف جنيه، وأخلى طرفه.. وغادر الشركة غير مأسوف عليه. وهناك من لم يخف مشاعره نحو - أحمد كرامتى

«ياللا.. يغور فى ستين داهية.. هذا النصاب.. العالمى..»

ذلك لأن أحمد كرامتى - كان يقوم بتسهيلات خاصة لحسابه - ويحصل من العمال على نسبة مما يأتى لهم به من متأخرات.. وإضافى.. وحوافز لم تصرف فى مواعيدها - وكانوا يدفعون له - ثم يتقدمون بالشكوى منه - على أساس «خلصت حاجتى من جارتى».

وحتى قبل أن يحصل أحمد كرامتى على مبلغ المكافأة الكبير.. كان أول من حمل التليفون المحمول فى حزامه.. قبل انتشاره.. وكأنه رجل أعمال مهم.. يعلقه فى حزام بنطلونه الچينز العريض.. بجانب حقيبة صغيرة يضعها السائحون فى أحزمتهم.

كنت قد خاطبته بأن فى ذلك إسراف لا مبرر له.. بينما زوجته كوثر تأتى ببنتيه شهريًا وتسبب لنا إزعاجًا، وقلقًا لضمائرنا.. وهى تسح الدموع مدرارة من عينيها!

وقال لى كلامًا كثيرًا يدافع به عن «المحمول»..

ولم أصدق ـ أن التليفون المحمول ـ من أجل أعمال تدر عليه ربحًا.. وأنه الآن فى مرحلة التكوين الرأسمالى.

وكوثر لا تصبر عليه «المغفلة تريد أن تهدم آمالى»

وكنت من الذين تنفسوا الصعداء لأن «السيد أحمد كرامتى» قد قُطعت صلته بشركتنا.. وبذلك ستتوقف زوجته من اعتبارنا.. أهله المسئولين عن تصرفاته غير المنضبطة!

* * * *

كانت قلوبنا مثقلة بما يكفيها.. وفكرت فى التهرب من لقاء «السيدة كوثر» التى صحبت بنتيها.. لابد وأن هناك مشكلة بينها وبين زوجها.. الذى قيل عنه أنه يعيش حياته التى يتمناها.. وأنه اشترى سيارة ملاكى.. شوهد وهو يقودها.. وزوجته بجانبه، وبنتيه يطلان من النافذة.. وشعورهم معقودة بالفيونكات الحرير..

قلت للأستاذ عبد الصمد: لحقوا يخلصوا الفلوس؟!

وقال الأستاذ عبد الصمد ليبرئ ساحته:

ـ أنا من جهتى.. حاولت أن أصرف الست كوثر.. على أساس أن حضرتك مشغول.. لكنها بكت بالدموع الغزيرة إياها.. وعندما قلت لها سأحاول.. جفت الدموع وابتسمت..!

ولم أجد أمامى من باب العلم بالمجهول.. إلا أن أقابلها.. وسريعًا ما أدخلها الأستاذ عبد الصمد.. أشار إليها.. وهى تضع بنتيها

أمامها وقال أم سلوى.. زوجة الأستاذ أحمد..

أم سلوى كانت فى ملابس على الموضة.. آخر الموضات التى يتشبه فيها النساء. بتأثيرات عالم الفضاء الخارجى.. وشعرها.. لابد وأن كوافيرًا ماهرًا قام بإعداده. وقد زينت وجهها، وكأنها فى الطريق لحضور حفل زفاف..!

والبنتان جعلتهما يبدوان ولا أولاد كبار المستثمرين.. كل شىء يرتدونه، يبدو غالى الثمن، ومتناسق الألوان. ولكن الست كوثر.. عندما جلست أمامى.. انخرطت فى البكاء فجأة.. لم يكن المكان ملائمًا لأن أغادر مكتبى وأربت على ظهرها.. كان لابد وأن أواسيها بكلمات تخفف عنها.. وأخرجت «الهانم باكو مناديل ، وأخذت تستخدم المناديل الورقية المعطرة.. برقة متناهية، فهى تكبس الدموع تحت عينيها فى بحلقة خاصة حتى لا تفسد الماسكرا والروميل.. ثم تلقى بالمناديل فى المنفضة.. ما جعل بكاءها يصل إلىَّ كنوع من أكاذيب وخداع سبق واستخدمها «أحمد كرامتى» وكثيرًا ما خدعت بهما.. وتوسطت له. ثم تعود.. ريمة لعادتها القديمة.. وعندما بدأت أحصى ما يتراكم أمامى من أعمال بدأت فى قص.. ما جاءت لتحكيه.

* * * *

«زوجى. أحمد فرغلى حصل على المكافأة.. اشترى سيارة فيات ١٣١ مستعملة. اشتراها من سوق السيارات الجديد فى سيدى بشر بالشارع الموازى للمقابر..

وخدعه أحد المحتالين.. باع له السيارة بخمسة وعشرين ألف جنيه.. وتبين أنها مسروقة وأوراقها مضروبة، وضبطت السيارة بعد أسبوعين.. وضاعت على - «زوجى» - الفلوس.

«وبكت قليلاً.. ثم استطردت»:

وعندما بذل مجهودًا.. وعثر على - «المحتال» - تعلق بملابسه لكنهم كانوا جماعة.. وانهالوا بالضرب على زوجى.. فين يوجعك وتركوه مضحضحًا.. ونقلناه إلى المستشفى فى حالة سيئة..!

«وقالت وهى تتهنه - وتحتضن أكتاف بنتيها فى زاوية، وركبتيها مع ساقيها فى الزاوية «الأخرى»

- وزاد البلة طين يا أستاذ.. أنه كان يحمل فى الحقيبة التى يضعها فى حزامه.. باقى فلوس المكافأة..

أقول له.. اشترى لى حتتين سيغة.. أو حطهم فى البنك.. لا فائدة. لما ضربوه وأغمى عليه.. انسرقت الفلوس والنظارة والخاتم والسلسلة الذهب.. والانسيال..

وقال الأستاذ عبد الصمد.. حتى يقصر عليها الطريق:

- فشوطوه يعنى.. قالت: فى استسلام:

- نعم فشوطوه خالص.. والآن وقد صرنا لا نجد اللقمة نتبلع بها وزوجى فى المستشفى الأميرى لا يحمل كرنيه التأمين الصحى.. ولم يهتم بأن يكون له دفتر تأمين صحى..

وقال الأستاذ عبد الصمد:

- إذا كان على دفتر التأمين.. بسيطة

لكن كوثر هانم قالت:

- ياريت المسألة.. مسألة علاج..

وحملقت فى عينى التى تتساءل «ماذا تكون المسألة إذن؟»

أشارت نحوى وقالت: نحن متعشمين فى الأستاذ.. أن يتصرف معنا.. كما.. ونحن نأمل فى قلبك الـ..

ولما نظرت إلى الأستاذ عبد الصمد.. «لخص المقصود» وقال:

«المدام تقصد.. أن نجمع لها مساعدات من العاملين.. أثناء صرف المرتبات.. نضع صندوق.. يلقى فيه كل من يصرف راتبه بشىء لله..»

وكانت المدام الأنيقة.. تؤكد على كلام الأستاذ عبد الصمد.. بهزات من رأسها.. وتسبيلة توجهها نحوى تحثنى بها على الموافقة وبدء العمل.. ولم أملك إلا أن أقول للأستاذ عبد الصمد:

- خلاص.. حضرتك.. اتصرف

وقال لها الأستاذ عبد الصمد:

- تجلدى يا أم سلوى.. ربنا لن ينسى عبيده مطلقًا، ولا أحد ينام بدون عشاء.. سوف أضع الصندوق.. لكن لا تتعشمى كثيرًا.. إذ إن الأستاذ أحمد لم يكن يساهم فى أى «مصيبة» وكان دائمًا يقول: كيف يفعلون ذلك.. «أنا كرامتى لا تسمح». وتمالكت نفسى

بصعوبة. حتى لا أنفجر ضاحكًا، وقامت السيدة الأنيقة.. وضعت نظارتها الريبان على عينيها، علقت حقيبتها على كتفها.. وأمسكت ببنتيها الجميلتين.. وخرجت بهما من باب مكتبى.. وهى تشكرنا على - فعل الخير - مقدمًا..!

بعد انصراف السيدة كوثر وابنتيها - قال الأستاذ عبد الصمد:

- هل تريد أن تعرف الحقيقة..؟!

انتبهت إليه فقال:

- عدد من العمال شاهدوا أحمد كرامتى، يبيع الملابس المستعملة أمام دكان.. يقال أنه دخل شريك فيه.. وذلك الدكان أمام سور مقابر عمود السوارى، بسوق الساعة.. ينادى على ملابس البالات المستوردة.. «قرب.. قرب.. يا جدع.. أكسى نفسك يا فقير.. بخمسة جنيه.. تلبس ملابس مليونير».

السيارة التى شاهده العمال يقودها.. تخص المحل وهى موجودة أمام المحل فى السوق.. مركونة هناك.

وسألته:

- والضرب الذى أفضى إلى سرقة باقى المكافأة والـ..

قال:

- أحمد كرامتى.. نضح على زوجته كوثر.. فلم يعد أحد يعرف الحقيقة من الخيال.. فى مشاريع مستقبلهما الانفتاحى..!!

مهموز..
ونظرياته الخواجاتى

.. لم يكن حسين محمود حسين، من العمال «القراريين» أى الذين بدأوا حياتهم عمالاً فى المصنع.

كان قد بدأ عمله فى «شركتنا» مساعد بائع فى أحد فروع البيع،، والفرع كان «موقعه» بحى البنوك والشركات التجارية.. بالقرب من محطة الرمل، من الفروع التى هجرها الخواجات وضمت للشركة المؤممة وحسين محمود.. أخذ طريقه فى الترقى من «مساعد بائع» إلى «بائع على الريون» بعد اكتسابه للخبرة اللازمة، والتمرن على تحمل غتاتة الزبائن ومناكفاتهم. على اعتبار أن «الزبون» دائما على حق، وهو الذى عاصر الخواجات وترسب

فى أعماقه الأثر الكبير الذى تركوه فى حركة وأساليب التجارة، وسياسة التعامل بصبر لا ينفذ مع العملاء.. عندما يكون دستور التعامل من مادة واحدة - أن تتغاضى عن حقك لصالح الزبون - ولم يكن من السهل «الاقتناع» بذلك - بعد التمصير - إلا إذا كان لديك أعصاب من حديد.. غير قابلة للاحتراق!

وحسين محمود.. فى الفترة التى عملها بالفروع.. قبيل ضم ما تركه الخواجات إلى الشركة.. استشف الكثير من طبائعهم.. وتأثر بهم، إعجابًا، وافتتانًا. فهو الذى تعلم فى فترة قصيرة عملها معهم.. كيف يتفاهم مع الأجانب الذين ينزلون فى الميناء ويزورون المدينة فى سياحة الساعات المحدودة.. ويرطنون بلغتهم المختلفة.

«حسين» بالكلمات القليلة من الإنجليزية والفرنسية.. وبعض الجمل الإيطالية، واليونانية، الشائعة، تمكن من أن يتفاهم مع البلولنديين والتشيك والرومانيين وحتى الروس،، بجانب الإنجليز والفرنسيين أو من يتحدثون لغتهم.. وأن يبيع لهم ما يرغبون..!

وكان ذلك ينم عن ذكاء فطرى يتمتع به حسين محمود الذى ولابد وأن - حناياه - امتلأت بالأمانى،، التى خنقت فى المهد،، إذ أن «حركة الجيش» تحولت إلى ثورة لا تتفق وميول «الجاليات» التى مكثت فى مصر على حس الاحتلال الإنجليزى،، مجرد أن تحقق الجلاء، بدأ العدوان الثلاثى.. وتم التمصير.. ثم بعده «التأميم».. وذهب الخواجات،، وآلت المطبعة والفروع ومنها الفرع الذى يعمل فيه حسين محمود.. إلى الشركة.. منذ الستينيات..

وتحول نشاط «الفرع» الذى عمل فيه ـ حسين محمود .. إلى أن يتخصص فى الكيماويات.. وآلات التصوير، وأسمائها الطويلة المعقدة.. التى لم يستوعبها ذهن حسين محمود «بالعربى».. فى الوقت التى تلاحظ له ـ أن أونطة الكلام باللغــات فى عــدد من المصطلحات التجارية ـ لا تصمد أمام جيش من الموظفين المؤهلين، والذين اجتاحوا الفروع،.. وأول سؤال يسألونه:

ـ ما نوع شهادتك الدراسية؟!

ـ وعلى أى وظيفة تم تعيينك.؟!!

كما أن حسين محمود ـ كان من الذكاء أن يلحظ ـ صعود أصحاب الظهور المسنودة.. وهبوط الكفاءات التى لا ظهر لها.. وأمام اختلاف المعايير والحركة.. توقف حسين محمود يتأمل الموقف.. وبعدها اختار أن يكون «دلدولا» لمن ظن أن بيده الحل والعقد من المديرين الكبار.

تقرب منه، وجعل من نفسه عينًا له بين العاملين،، وإذا قال أحدهم،، كلمة عنه ـ صاغها فى جملة.. وإذا قالوا جملة.. جعل منها موضوع مقال.. «ولعل ذلك كا أحد العيوب المكتسبة من عمله مع الخواجات،،.فانه كان يفعل ذلك.. دون تأنيب من ضمير.. «وسريعًا ما استشف العاملون ألاعيبه ـ فحولوا اسمه من «حسين محمود» ـ إلى «حسين مهموز»

ثم حذفوا الأسم الأول ـ وبقى له ـ مهموز ـ الذى كان يتناولوه فيما بينهم.. وعندما فاض بهم الكيل، كانوا يذكرونه أمامه.. بل

ينادونه به.. لإثارته. خاصة.. عقب سقوط الظهير الذى يتساند عليه «مهموز» وقد سقط فى الصراعات بين الإدارة الوسطى. سقوطا مريعًا..!

ذلك عندما كشفوا إحدى سرقاته أو اختلاساته، وخيروه.. بين السجن والاستقالة.. فآثر أن يقبل عقدًا.. ويسافر للعمل فى الخيلج.. ويبتعد. وبعدها نكلوا بأعوانه.. وعيونه..!

وكان أن تحول «حسين مهموز» من وظيفة «بائع بالفروع» إلى «عامل بالمصنع».. وهناك «شاف الهوايل!!»

حسين وجد نفسه يتعامل مع عشرات من العمال ومستويات بعضهم،متدنية فى الوقاحة،و والصفاقة، جعلوا من - مهموز - محل سخريتهم.. إذا ما ركبت لسانه بعض العبارات الأجنبية، أو تصرف تصرفا مهذبًا مما اعتاد عليه.. يضحكون منه، وكأنهم يشاهدون فصولا لتمثيلية يقوم بها «عبدالسلام النابلسى»!

وبين العمال فى المصنع.. أثناء تعاملهم اليومى.. وصراحتهم التى لا تقبل أى شىء إلا عاريًا كما ولدته أمه.. سقط حسين محمود فى بئرهم يتخبط فيه.. ولم يقاوم.. فإن المقاومة كانت تهيل فوقه كثيرًا من الأتربة والحجارة..!

ولعدة سنوات، كان حسين مهموز يعانى، ولا يملك إلا أن يتقبل سخرية العمال منه مبتسمًا.. إذ كانوا يسخرون من طريقته فى الكلام والتعامل.. ومقاومته التى كان يبديها.. أن يحتفظ لنفسه بالبشاشة التى درج عليها، وبالأساليب التى أعجبته فى الخواجات..

وهو الذى يعتبرهم - قمة الذوق والرقى.. وأن يكظم غيظه ويكون جنتلمانًا، وعناد حسين: كان يقابل بعناد أشد منه من العمال.. يريدونه مثلهم.. لا يختلف عنهم.. حتى فى - كلامه - وحتى يريح حسين نفسه.. تعلم كيف يتحدث مثلهم، وكيف يستخدم تعبيراتهم، بفحش فى القول.. ويشخر بين كل مقطع وآخر.. ويسب.. مستخدمًا قاموسهم فى التعامل.. وياله من قاموس.. يشعرهم بمنتهى الحرية..!

وبالأقدمية.. تناسوه.. وصار حسين مهموز.. جزءًا من شلة، يتظلل بحمايتها.. وأمكن له أن يتقن العمل على آلة تصنيع الأكياس بأحجامها المختلفة.. وصار عددا من العمال.. ينادونه: أسطى حسين».. إذا ما سمعهم عامل قديم سخر منهم قائلا:

«أسطى مرسيه»..

وعندما كان حسين محمود.. يأتى إلى الشئون الإدارية لطلب. ما كان يحاول بقدر ما يستطيع - وهو يتعامل مع الأفندية - أن يستعيد حسين القديم المهذب. الذى يبدأ كلامه «بحضرتك.. وسيادتك».. وينهيه «بمرسيه بوكوه»

وكان يحلو للأستاذ عبد الصمد - استدراج حسين إلى أن يذكر شيئًا عن الخواجات الذى يعجب بهم. فكان حسين يشيد بالأجانب عمومًا - فى تعاملهم، واتيكيتهم، ويقول فى ذلك نظريات - استمتع أحيانًا بالاستماع إليها.. واندهش لانحيازه الشديد لكل ما هو أجنبى.

والأستاذ عبدالصمد.. كان خبيرًا فى سبر أغوار حسين محمود ورفع القشرة السيئة التى اكتسبها من تعامله مع عمال المصنع. وهم أشتات من عمال مصانع صغيرة جمعت وضمت فى السبعينات والثمانينيات.. لتكبير شركتنا.. لدواعى الترقيات.. وفتح المجال أمام «المدير العام» لأن يكون «رئيس قطاع».

والعمال لا يستطيعون – بعضهم على الأقل – إخفاء تشوهاتهم البيئية والنفسية.. فهم وقد غالوا فى ارتداء ملابس جديدة على الموضة ودهنوا شعورهم بالفازلين، وصنعوا على رءوسهم تسريحة جيمس دين أو زلبطة بول برينر - أو حتى شعر جونى ويسمولر «طرزان».

سريعًا ما يتغلب أثر البيئة الشلق - والتشويهات التحتية التى إصابتهم أطفالاً - بمجرد إثارتهم إثارة خفيفة - كجدار مطلى بلون ضعيف، فوق لونه الأساسى الثابت، سريعا ما تتساقط القشرة، ويظهر الجدار على حالته الأولى..!

لكن حسين محمود.. كان إذا ما أثير.. أو تم حكه، سريعًا ما يظهر البائع المتفرنج المهذب الذى كان..

وعددًا كبيرا من سكان الإسكندرية الذين عاصروا الجاليات.. لا يزالون يشيدون بحسن التعامل الخواجاتى.. فى التجارة.. وشطارتهم فى تثبيت «الكلمة الواحدة» وأن تحل الثقة مكان الكمبيالات والشيكات..

كان الصدق هو العامل السائد أو هكذا أشيع.. ولم يكن هناك.. حديث كثير عن «الشرف..».

على اعتبار أن العاهرة، تتحدث كثيرًا عن الشرف ولا تحلم بعقد المأذون..».

وحسين محمود. عندما يتكلم عن الخواجات.. وحتى اليهود منهم - كان يذكر مواقف، حدثت معه بالفعل. أو حدثت لغيره فينسبها لنفسه. والمواقف فى مجملها تدور حول «أمانة» الأجانب فى رد الزائد.. ودفع قيمة ما يخطئ فى حصره.. والإحساس معهم بأنهم لن يسرقوك «وأنهم لا يأكلون «مال النبى»!».

وبمرور الزمن - وتباعد عهد الخواجات، والجاليات، فى المدينة لم تكن حكايات - حسين محمود - عن الخواجات، تتناقض بل على العكس. كانت تتزايد..!

وصار حسين محمود.. خبيرًا فى هذا المجال - الذى لابد وأنه تفرغ لتنميته..!

والأستاذ عبد الصمد.. يريد أن يثبت لى بأن - حسين محمود - مصاب بعقدة الخواجة.. كان يستدرجه إلى مواضيع شتى.. تنفصل عن مجاله تدريجيًا فكان حسين محمود - يفتى فيها.. طالما كان أحد أطرافها خواجة..!

يبتسم عبدالصمد - وهو ينظر نحوى - عندما يقول له: - لا لا.. أنت خبير قوى يا حسين.. ما دام البئر خواجاتى فلابد وأن تدلى بدلوك..!

ولاحظت أن حسين محمود صار يؤسس سياسته الخواجاتى فى البيع والشراء والتعامل.. على بنك وحيد.. (تقريبًا) هو «سر نجاحهم» ويخصه فى «أن يقدم البائع شيئًا مميزا عما هو سائد فى السوق، ولو كان التميز واضحًا. حقق فى مجاله، نجاحا سريعا وأن يضع فى اعتباره - كتاجر - أن المشترى من الذكاء أن يكتشف أى عيب فى السلعة أو الخدمة التى تقدم له»

وعلى ضوء ذلك، كان حسين محمود.. ينطلق فى إبداء إعجابه بالخواجات. ويقارن بين التعامل «المثالى» الذى كان فى معظمه من بناء ذهنى.. صنعه حسين.. بنفسه وصار ينسبه للخواجات..»

وإذا ما طلبت منه تفسيرًا لذلك.. دون أن أفصح عن معارضتى لبعض ما يقوله. ينبرى قائلاً:

- يمكن أن أقدم لك عددًا من الأمثلة.. لكننا فى العمل.. وأخشى أزعاجكم..

.. ثم يلخص المسألة - فى «جسر الثقة» الذى سريعا ما يجمع الزبائن والعملاء على (المشروع) الناجح.. فيكون هناك.. من يبحث عن دكانك.. أو يذهب خصيصًا لشراء بضاعتك، وكلة ثقة، بأنك حتى لو بعت له بالسعر السائد - فأنت لن تغشه ولن تقدم له شيئا مقلدًا..!

واستشعرت.. فى حديث حسين محمود أنه.. كان يضمر أمنية فى نفسه أن يكون صاحب تجارة.. ويطبق دستور الخواجات.. أو

دستوره فى التعامل.. ويتمكن من استمالة عدد من الزبائن الدائمين.. فيحقق لنفسه النجاح..»

وكم تمنيت مع الأستاذ عبدالصمد. على ضوء إعجاب حسين محمود.. بدستور الخواجات - فى التعامل - لو أن فروع شركتنا.. تفهمت تلك «الفلسفة» التى يمكن بالفعل تطبيقها..

ولكننا إذا تأملنا واقع الحال.. ظهرت لنا مدى الصعوبات التى تواجه ذلك «الحلم»..

كيف باتت ماركات.. معينة. كانت محل الثقة العالمية دون منازع وقد ورث - القطاع العام - عددًا من هذه الماركات المشهورة. محل الثقة العظيمة..

وسريعًا ما تبين للزبون - أنه ليس دائمًا على حق.. وعليه أن يحصل على ما يقدم له ويتجرعه - كشربة الزيت الخروع.. وإلا تعرض للإهانة - وعدد من عمال الفروع.. فتوات مقاهى بلدى.. يفعلون ما يرضى نفوسهم.. والمسألة مهما استفحلت بين الزملاء.. لن تتعدى.. تحقيق يدفع فيه - المتهم - بجملة من الأكاذيب. ثم ينتهى التحقيق إلى جزاء خصم يوم، أو يومين من المرتب..!

وكلما حدث حادث من هذا النوع كنت أستدعى حسين محمود صاحب النظريات الخواجاتى.. وأناقش معه الموضوع..

على اعتبار أن حسين محمود.. يوسع من معارفه الخواجاتى بأساليب لا أدرى كيف يصل إليها..

ولعل - إحداها «الأفلام» و«الصحف».؟

خاصة عندما - تكلم مرة عن «المكاتب» بداخل الحجرات المغلقة وهى سمة من سمات - موظفى العالم الثالث.. بينما العالم الأول - لا تخصص لهم غرف مغلقة، تساعد على النوم أو الانصراف إلى.. أعمال أخرى لا تمت بصلة لما يفعلونه. أنهم هناك، يجلسون على مكاتب مكشوفة. فى صالة كبيرة.. معًا.. تجمع عشرات المكاتب.. وشخص واحد.. يمكنه ان يراقب الشركة كلها.. وأعمال موظفيها.. مما يبطل عمل العيون والآذان - تلك الوظائف المبتكرة، بفضل الغرف المغلقة، والتى يفضل البعض أن يتدرب فيها.. حتى يتقن فن التجسس والنميمة..»

وفى شركتنا.. كنا نعانى من وجود أعداد كبيرة من الخباصين. الأمر الذى جعل إعجابى بالعامل حسين محمود،، يزداد..!

ولما بدأت «شركتنا» فى التصفية.. للتحول إلى.. القطاع الخاص والإستثمارى..

عمدت الشركة إلى تخفيف العمالة الزائدة.. بتشجيع البعض على طلب «المعاش المبكر» مقابل مكافأة.. ومعاش دائم..

لاحظت بين أسماء الذين تقدموا بطلب المعاش المبكر.. اسم «حسين محمود حسين»..

وسألته: ماذا ستفعل بالمكافأة يا حسين؟

قال: أتمنى أن أحصل على مايزيد على الثلاثين ألف ـ أو لا يقل عن ذلك كثيرًا وسأقوم بافتتاح بوفيه.. أقدم فيه المشروبات.. والشيشة..!

اندهشت، أن رجل النظريات التجارية الخواجاتي، وينتهي به المطاف.. إلى صاحب كافيتريا.. أو مقهى صغير يعمل فيه.. كجرسون.. وأن هذا التحول الخطير.. يفسد ما كنت أتوقع بأنه يحلم به.. أن يكون تاجرا ناجحًا يومًا،، ليطبق نظرياته..!

لكن حسين محمود.. لم يخف عني الأسباب..

قال:

أى دكان صغير فى الأسكندرية.. صار يحتاج لأكثر من مائة ألف جنيه.. إذ لابد أن تحصل عليه فى زحام النشاط التجارى. كما أن انعدام الثقة بين الموردين.. ومن يتحدثون كثيرا عن الشرف.. يجعل النشاط التجارى يحتاج إلى ألوف مؤلفة للضمانات، والتحول الذى حدث لى.. جاء من جلوسى على ـ بوفيه ـ لتدخين حجر معسل.. فوجدته خاليًا من الزبائن.. مع أن صاحبه أعده وجهزه تجهيزًا مكتملاً. ولكن سريعًا ما تبينت أنه يقدم القهوة مغشوشة بمسحوق فول السودانى المحروق.. كما يقدم لحسة معسل على حجر الشيشة.. يحترق فى الأنفاس الأولى.. مع أن ثمن الحجر الواحد.. يأتى بباكو معسل كبير.. وهناك تشعر بأن صاحب البوفيه يغشك وأنك لن تعود إليه مرة أخرى ومع ذلك ناديت على صاحب البوفيه وأخذت أحدثه عن ـ «سياسة الخواجات التجارية» بأنه لو

قدم شيئًا مميزًا.. عما حوله.. سيجذب الزبائن.. وعليه أن يضع نفسه مكان الزبون!

لماذا يبدل الزبون مقهاه التى اعتاد عليها ويأتى إليه..؟

هل يأتى اليه - ليغشه ويطعنه فى ذكائه؟!

الرجل - لم يفهم كلامى - واعتقد بأنه لو أقسم لى بأن البوفيه يقدم أفضل المشروبات.. سوف أصدق.. الزبون لا يصدق إلا ما يجربه ويختبره. واعتقد الرجل إننى أتسلى معه لفراغ البوفيه من الزبائن.. وأخذ يشكو لى من وقف الحال.. وأن أمواله لو وضعها فى بنك.. لعاش مستورا من فوائدها..!

وسألته: هل تود أن تبيع البوفيه على حالته هذه؟

قال: ومن هذا المجنون الذى يشترى مشروعًا فاشلاً؟

قلت له: المجانين كثير.. فلا تيأس..!

وكان الحديث قد بدأ عن مكافأة المعاش المبكر.. فبت أحلم.. بذلك البوفيه العاطل.. أطبق فيه ما تسمونه.. «نظرياتى الخواجاتى»..

وتدخل الأستاذ عبدالصمد - ليذكر أن الرسول الكريم هو القائل:

«من غش أمتى.. فليس منا..».

وعندما وجد الأستاذ عبدالصمد أننا نستوعب ما قاله - أضاف إضافة تنم عن «سعة اطلاعه»، وتؤكد نظريات حسين محمود بأن الشيخ محمد عبده - لما كان فى فرنسا - وشاهد تعاملهم هناك قال - وجدت التعامل بين الفرنسيين إسلاميًا - بينما التعامل بين المسلمين.. كافرًا!!

حصل حسين محمود.. على مبلغ ثلاثين ألف جنيه وباع شقة صغيرة ورثها عن والدته - بمبلغ اثنى عشر ألفًا.. وساهمت زوجته معه.. بثمانية آلاف..

واشترى - البوفيه - وأضاف عليه بعض اللمسات الجمالية، إذ بدل الستائر.. وأضاف السيراميك.. وجهاز التليفزيون الملون. والاستريو.. والترابيزات، أعاد تلميعها وفرش فوقها المفارش.. وأضاف عدة جديدة للبوفيه - مطلية.. واختار كل ما هو شرقى، حتى اللوحات على الجدران، وعندما أتم التجهيز دعانى مع الأستاذ عبدالصمد.. للافتتاح.. كما دعى كثير من الشخصيات التى يعرفها أو يود أن يوثق معرفته بها.. ولم نجد أثناء الافتتاح.. إلا عددًا ضئيلاً من زملاء العمل..

وصاحب افتتاح «بوفيه الشرق» تقديم المشروبات، وكراسى المعسل و«التفاحة»، مجانًا..!

وفرحت بأن ثمة (عامل) يريد وضع نظرياته موضع التطبيق - وتنبأت له بالنجاح، والربح الوفير.. ما دام يؤمن ببناء الثقة على أساس الصدق وتجنب الطمع!!

بعد فترة زمنية وجيزة.. ساقتنى قدماى إلى «بوفيه الشرق» لصاحبه حسين محمود «صدمت أن وجدت البوفيه غارقًا فى الفراغ والسكون.. فيما عدا ثلاثة زبائن انتحوا جانبًا.. فى ركن بجانب الباب.. والوقت لم يكن من الأوقات الميتة من اليوم.. ووجدت «حسين» يقوم بنفسه بالخدمة. على النصبة.. وعلى الشيشة.. ويوصل الطلبات لعدم استطاعته دفع رواتب اثنان من القهوجية على الأقل.!

ولما شاهدنى حسين.. اندفع نحوى يرحب بى وجعل جلستى فى «مرآة البوفيه» المقدمة التى تطل على الشارع، وكنت أفكر - أن ألوى عائدًا .. حتى لا أسبب له حرجًا. فقد ذهبت.. وفى ظنى أن البوفيه سيكون كخلية النحل.. فما حال حسين محمود؟

الذى وصع فى مشروعه كل ما يملك؟!

لكن حسين محمود.. فى ترحيبه.. وفى حركته.. وسرعة إحضاره.. للقهوة.. والشيشة، كان فيما يبدو سعيدًا وفى ظنى أنه «يدعى ذلك».

وبالفعل تبين لى أثناء الحديث معى أنه يشعر بمرارة.. ومع ذلك فإن العمر ليس قاتمًا من جميع النواحى.. وأبلغنى بأنه يحصى الزبائن الدائمين.. فيجد أنهم يزدادون يومًا بعد يوم.. وهو لا يعنيه الزبائن الطيارى.. «بتاع ساعته». وأنه لا ينكر أنه شعر باليأس والإحباط.. لكنه فى الوقت نفسه سمع بأذنه من يمدح - عمله - وما يقدمه من مشروب ودخان.. بثمن ثابت».

كان يحدثنى وهو يقف.. أمامى يرتدى چاكتة البوفيه البيضاء والفاروقية على رأسه. وكان نظيفًا ومهندمًا ويشبه جرسونات المحلات الكبرى.!

وقال لى أن المشكلة الحقيقية.. أنه لا يجد «الصنايعى» الذى لا يغش.. كما أنه لا يجد خادم «الشيشة» الذى لا يختصر من المعسل.. ولا يطلب البقشيش.. بأسلوب باعة الأتوبيسات.. والقطارات!

والمشكلة الثانية.. أنه يسمح بتسهيلات للزبائن فى الثمن. الصنايعية يريدون الحصول عليه لأنفسهم.. وعندما كان حازمًا.. وطرد من يفعل ذلك،.. وعلق لافتات تقول «رجاء لا تدفع بقشيشًا.. وتلتزم بالسعر المحدد..» «انتظر من فضلك لتحصل على باقى فلوسك» «.. تمسك بحقك.. والسعر المعلن».

«تكاتف الصنايعية الذين عملوا فى البوفيه.. مع أصحاب المقاهى المجاورة. وأشاعوا بأننى أقدم شايًا مخلوطًا بنشارة الخشب المصبوغة وأننى أقدم القهوة.. تؤدى إلى العقم.. وجميع المشروبات الأخرى من مواد فات تاريخ صلاحيتها..

وقالوا أننى أضيف على دخان المعسل، ورق الشجر الجاف وإلا.. لماذا أحدد السعر.. بنصف أسعارهم، ولماذا أتمسك بعدم دفع البقشيش..!!

ثم أضافوا.. بأن «الغالى ثمنه فيه»..!!

وقال حسين محمود:

«ولعل بعض الزبائن خدعوا فقاطعوا البوفيه ولكنى آمل أن يكتشفوا.. سريعًا - الإفتراء فى تلك الأكاذيب.. ويأتون إلى قريبًا..

****

بعد أن فرغت من احتساء فنجان القهوة.. وأخذت أسحب من دخان الشيشة.. السالكة الهادئة.. ولا أسعل.. اقترب منى يسألنى:

- بذمتك يا أستاذ.. بدون مجاملة، ما رأيك فى بضاعتنا؟ وقلت له: دون مجاملة، بضاعتك جيدة.. وتبيعها بنصف الثمن تقريبًا.. وفى ظنى أن بوفيهك خلال شهر من تاريخه.. لن أجد فيه مكانًا فارغًا فأشار إلى - السندرة - وقال: عندى.. كراسى وترابيزات فوق تملأ الرصيف..!

ضحكت وانصرفت. وتمنيت له التوفيق من كل قلبى، لكن بعد عشرة أيام لم أشرب فيها القهوة كالتى شربتها فى بوفيه الشرق.. ولم أعثر على نفس دخان سالك وهادىء مثلما قدمه لى فى الشيشة النظيفة المدندشة.

وجدت نفسى أقطع مسافة.. ثلاث محطات أتوبيس.. وأهبط بجانب البوفيه..

كان البوفيه.. به عدد من الزبائن لا بأس بهم.. وكان - حسين - قد استعان باثنين من الشباب يرتديان نفس ملابسه.. خصص أحدهما للشيشة والآخر لمعاونته فى توصيل الطلبات.. أو جمع

الفارغ.. لكن حسين محمود.. بنفسه هو الذى كان يقوم «بالصنعة» ومحاسبة الزبائن.. ويتمسك بأن يرد باقى الفلوس، ويرفض.. البقشيش فى شىء من الأدب واللطافة..

وبعد استقبالى.. حضر عدد من الشباب.. جاءوا لمشاهدة مباراة كرة قدم فى التليفزيون الذى كان يعرض عليه فيلمًا قديمًا.. لعبد الحليم حافظ.. قام بصرفهم بهدوء بحجة أن التليفزيون لا يتحول إلى قناة أخرى.. لعيب فنى فى الجهاز..!

وتخلص من الصخب الذى يمكن أن يسببه الشباب المتعصب لكرة القدم.. وبالصدفة سمعت حديثًا خاطفًا بين الزبائن يشيدون بنظافة المكان.. ومشروباته الجيدة.. وتوفر الهدوء - الذى لم يعد متوفرًا للبعض فى منازلهم.. وشعرت بشىء من الفخر.. لنجاح نظرية حسن محمود التى ينسبها للخواجات - فى بناء «جسر من الثقة» طوبة .. طوبة.. فيعلوا الصرح.. ويصير فى ارتفاع القلاع..

وبعدها يتعذر.. هدم الصرح بسهولة.

الأسطى شاهين
ومشروعه الانفتاحى..!

.فى أيامنا الخوالى .. كنا نرتبط بترزى، وحلاق، وصانع أحذية .. وجزار، وفران و.. إلى آخر ما نحتاج إلى صنعتهم وبضاعتهم..

وكان الارتباط وثيقا لا ينفصم إلا برحيل أحد الأطراف. وفى أحيان كثيرة.. كان الارتباط يستمر فى «الورثة» مادمنا نسكن «الحتة» حتى أن ملامح أشخاص «الحتة» كانت تتشكل فى صورة.. متقاربة.. ويمكن تمييزهم عن غيرهم .. بها ..!

فإذا كان الجزار يغشهم.. فالاصفرار وفقر الدم سيكون ملازما فى وجوه الجميع ..

وإذا كان الحلاق لا يتقن إلا قصة شعر واحدة وتدريجة قفا واحدة.. فإن أهل الحتة كبارا وصغارا.. سيكون لهم ملمح عسكر الجيش و ...

ومع ذلك فقد كان البعض يرى.. أن فى ذلك نوع من الانتماء.. افتقده أناس هذه الأيام على اعتبار أن الناس أيام زمان ـ كانوا لبعضهم .. أوفياء..!

ولكن الأستاذ عبدالصمد له فى ذلك تحليلاته الخاصة «الأستاذ عبدالصمد مثقف من منازلهم » فهو يعزى الارتباط الوثيق بأصحاب مهن معينة لبقايا ـ القبلية والقبيلة ـ وأن التطور عندما شمل القبيلة، أفقدها الارتباط الجبرى ونوع فى الارتباط .. ومنح الناس حرية فى الاختيار!

كما أنه جعل المهنة على المشاع. أن تختارها أو تنكص عنها. وليس إلزاما أن يكون ابن الحلاق، حلاقا. وابن النجار.. نجارًا كما أن شيخ الطريقة توقف عن أداء عملة المقدس. ولم يعد يحزم المهنة، بحزام كشهادة، بأن الصبى صار صانعًا يعتد به..!

وعليه أن يورث مهنته لأولاده. كملمح من ملامح العصر الإقطاعى وقد تم انحسار الصانع الكامل.. وظهور الإنتاج النمطى..!»

كنت فى الواقع انجذب لتحليلات الأستاذ عبد الصمد وعمق قراءاته المتنوعة.. وهو الكاتب فى إدارتى بالصلاحية.. وكل مؤهله اتقانه الشديد لما يكلف به من أعمال..

والمناقشة بيننا .. هى دخان .. لابد وأن يكون له نارا فى مكان ما.. وحتى إذا لم أطلب تحديد مكان ـ النار ـ كان الأستاذ عبد الصمد سيدلنى إلى .. «الأسطى شاهين»، الذى هو مصدر .. الدخان!

ولمعلوماتكم، الأسطى شاهين. له مكانة خاصة فى نفسى دون كثير من العمال فى المصنع.. إذ إنه ابن عبد المولى بركات شهيد معركة مديرية البوليس بالاسماعيلية المشهورة .. التى تحولت فى عهد الثورة إلى .. «عيد للشرطة».

.. والده كان يعمل شرطيا فى الداخلية بمدينة الاسماعيلية - عندما ألغى النحاس باشا المعاهدة مع الانجليز سنة ١٩٥١م - والتى كان قد عقدها هو نفسه فى سنة ١٩٣٦م.

قام بالغائها من طرف واحد وبجرأة يحسد عليها .. صاحب المقام الرفيع بينما الانجليز - الطرف الثانى المستفيد من جعل احتلالهم لمصر .. دون نفقات تذكر رفضوا الغاء المعاهدة وتمسكوا بها .. وقد أدى ذلك إلى أن شرعت «مصر» فى معاملة الانجليز وعوائلهم وقواتهم .. كأجانب.. عليهم دفع قيمة الفاتورة من رسوم المرور والاقامة والنفقات الواجبة..

وقتها. تفاقمت الأحداث. إذ أن العمال فى المعسكرات الانجليزية تضامنوا وقاطعوا العمل والتعاون مع الانجليز.. فقام الانجليز باحتلال مدن القناة .. وصدرت التعليمات من وزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) لقوات الشرطة باستخدام بنادقهم القديمة.. والدفاع لآخر رجل عن المديريات ولا يسلموها إلا على جثثهم.!!

وفيها استخدم الانجليز دبابات وطائرات، ومدافع الحرب العالمية الثانية.. وهزموا الشرطة. واستشهد(عم) عبد المولى أحمد بركات.. تحت الأنقاض .. وتم نقل ما عثر عليه منه، إلى بوالينو

فى محرم بيك. ودفن فى مدافن المنارة.. وأحد الجيران تأثرت نفسه بأحوال أولاد الشهيد ومعاشهم القليل. فألحق ابنه البكرى «شاهين» ... صبيا بالمطبعة التى ستؤول لشركتنا ..!

وتدرج (شاهين) من صبى، إلى شاب. على ماكينات تسطير الكراس: ومع أنه كان يعامل كابن شهيد . فقد أثبت بأنه (عامل مطيع) ويؤدى عمله على خير ما يرام. وكان على جانب من الذكاء والطموح. كما أنه لم يكن منغلقا إلا بسبب ثبات الأوضاع فى المرحلة الناصرية .. عندما كانت الدولة تقوم بدور رب الأسرة من مجاميعه!!

ولكن فى عصر الانفتاح..

انفتح الأسطى شاهين هو الآخر، وبدأ فى تشغيل ذهنه .. واختار لنفسه مشروعا .. وتكتم عليه حتى لا تتسرب تفاصيله بين قطيع العمال، الذين لا يجيدون إلا «النق الأصلى» . وهو تعبير «مهزار» يعى «الحسد الحقيقى»!!

ترقب شاهين عبد المولى، صرف مكافأة المعاش المبكر.. حتى يضرب عصفورين بحجر واحد، يحصل على المعاش الدائم .. ومكافأة تعينه على إخراج مشروعه الاستثمارى على «سنجة عشرة»!

كما صرح للأستاذ عبد الصمد..

وشاءت الأقدار أن يتحقق لشاهين عبد المولى بركات ما عاش فى العشرة سنوات الأخيرة من أجله، يحلم به ..!

فهو دون أن يدرى أحد.. ذهب إلى (معهد) قطاع خاص. وتعلم «فن قص الشعر»، وقد أتاح له «المعهد» بمصاريف قليلة، أن يتعلم الزيانة - ليس فى رءوس اليتامة .. ولكن على نماذج .. مع استخدام «عدة الشغل» فى شئ من الإتقان.

كما أنه بالمعهد تلقى محاضرات نظرية - تنقل حالة الحلاقة من كونها «عمل» قد يتم باستخدام مقص وموسى حلاقة، على الطريقة الشائعة. إلى (عمل) له فنه الخاص، ومراحله المتعددة.. والتى يشعر خلالها.. وبعدها - الزبون - بأنه مر (بعمل) خطير .. كما يشعر الفنان بأنه أدى عملية فنية فائقة، تملأ نفسه بالزهو والفخر، ويشعر أيضا بإحساس «الطبيب الماهر»!

الذى يتقن فن أداء العلميات الدقيقة ..!

«والأسطى شاهين .. أعطى سره للأستاذ عبد الصمد والذى لا يعتبره موظفا قراريا .. بل هو (عامل) فى صورة موظف فتمتد الثقة بينهما ..»

عندما صرح له :

بأن «المعهد» بجانب تعليم الطالب «أصول الصنعة» كما يتقنها أى أسطى عقر .. فأنه يضيف إليها كما هائلا من «الهمبكة» التى تجعل الفرق شاسعا .. بين مزين .. يدفع له الزبون جنيهان ويظل ينظف له أكتافه بالفرشة من الشعر .. حتى يخرج معه من الدكان .. بل قد يمشى خلفه بضع خطوات على الرصيف الممتد أمام الدكان .. وهو يكرر فى أذنه «نعيما يا بيه»..

ومزين آخر .. دكتور حلاق .. يلهف «الثلاثين جنيها على الأقل» فى شىء من الترفع .. ولا يضع يده فى رأس الزبون إلا فى العمل الأساسى، أو المرحلة المعقدة من عملية الحلاقة.. والزبون فى عملية الحلاقة الزواتى .. يجعلونه يمر بعدة مراحل.. معظمها مراحل «شكلية» تدخل تحت بند «العولمة» مما يعطى الزبون إحساسا هائلا بالأهمية، وهو محاط بثلاثة من شباب الحلاقين فى ملابسهم الموحدة، وزيهم المختار.

أحدهم يحضر «العدة» على بشكير أبيض على رف المرآة .. وقد يقوم بغسل الشعر وبعد الحلاقة فى الحوض الصغير الذى يقع فى مواجهة الزبون - عندما يدير المقعد - ويحرك أذرعته فيصير الزبون شبه نائم..ورأسه فى الحوض.. ويبدأ فى استخدام - الشامبو - ورشاش الماء مع التدليك لفروة الرأس .. وتجفيف ما يتناثر على الجبهة أو يتسلل إلى الرقبة من الماء الدافئ.. ثم يستعدل الحالة.. ويتركها .. لزميله الآخر الذى يقوم بتجفيف الشعر بالسشوار المتحرك، ويتم تسريح الشعر فى عدة اتجاهات مختلفة.. وتحديد أهم المناطق التى سيعمل فيها «الدكتور المتخصص» والذى يتقدم للعملية، وهو فى ملابسه العادية.. فيقوم صبى المحل بتناول المعطف الخاص به، وتهيئته له فيدخل ذراعيه فى أكمامه.. وتظل يديه مرفوعان أمامه، حتى يقوم أحدهما .. بوضع المشط والمقص فيهما .. ليبدأ العمل الأساسى فى رأس الزبون .. ولا بد وأن يكون المساعدين على يقظة تامة .. لما سيتلفظ به من طلبات .. «المقص الطويل» .. «المشط العريض» .. «المشط الضيق» .. وقد يطلب

الملقاط. أو بأن تستعدل الحالة .. أو أن يترك مكانه قليلا لمن يقوم بتنظيف ما تناثر من شعر مقصوص .. ثم يتقدم فى تمهل ليواصل عمله الخطير ..!

وبهذه - الاجراءات - التمهيدية.. والنهائية. يتسع الفرق بين صالون الحوارى فى عصر الانغلاق، والصالون الفخم الذى يتلألأ بالكريستال والمرايا والأجهزة الكهربائية والالكترونية فى المسألة التزيينية، وهو ما جاء به عصر الانفتاح العظيم..!

أما وقد كان - الأسطى شاهين - محل عطف من رؤساء الشركة.. وكان من العمال المجتهدين بالإضافة إلى طباعه الهادئة ورزانته ..

فإن علاقتى به تتم معظمها من خلال علاقته الوطيدة بالأستاذ عبد الصمد..!

وأمكن لها أن تمتد. حتى أن حصل على مكافأة المعاش المبكر .. وأخلى طرفه، وانتهت علاقته بالشركة..

انقطعت أخباره فترة زمنية .. ثم جاء الأستاذ عبد الصمد - الذى له قدرة فائقة للاحتفاظ بشعرة معاوية، مع عمال الشركة.. الذين يعملون بها أو الذين يتركونها لأسباب مختلفة - وأبلغنى بأنه زار «الأسطى» شاهين عبد المولى فى الصالون الهائل الذى يملكه.. ومقره آخر شارع خالد بن الوليد.. بناحية ميامى.. أقرب إلى شاطئ البحر .. وشارع الكورنيش .. منه إلى شارع جمال عبد الناصر ..

وأخبرنى بأنه - حلق شعره وذقنه فى الصالون الانفتاحى.
«ورفعت بصرى إلى شعر رأسه، فوجدت أنها حلاقة عادية جدا - لا تختلف عن حلاقة الحاج منعم وأولاده. الذين يحلقون له منذ سنوات طويلة. تحسس الأستاذ عبد الصمد رأسه وقفاه.. ثم أخذ يضحك وكرشه يهتز بدون أن أجد فى نفسى رغبة لمشاركته - مع عدم المفهومية لما فى ذهنه - وانتظرت - مادام قد بدأ موضوعا، حتما سيحيطنى بكامل تفاصيله..

«أنا مدير إدارته وهو يمسح لى الجوخ»

وقال: يا ما كان نفسى أقص شعرى فى صالون حلاقة انفتاحى..!

ورفع عينيه إلى سقف الغرفة - وقال: أحمدك يارب إنك حققت لى هذه الأمنية الغالية قبل أن أموت..!

وعاد يقهقه ويمسح عينيه من الدموع .. بما يشير بأن الحلاقة فى الصالون الانفتاحى - «همبكة» من الأصلى، وبالفعل - كان سبب ضحك الأستاذ عبد الصمد - أنه مر فى «صالون سان فرانسيسكو» بمراحل «الهمبكة» ووجد أن حلاقة صالون سان فرانسيسكو - أقل أمانة - من صالون «الأمانة» للحاج منعم وأولاده.. بحارة الزمخشرى بباكوس. بل أن صالون الحاج منعم - يزيد عن الصالون الأمريكانى - بأنه يزوده بأخبار الحتة.. من تزوج، ومن طلق، ومن سرق وحبس .. ومن سرق وتمت تبرئته زورا .. والذين ماتوا .. والذين أفلتوا بأعجوبة فى حادثة - تقع كل مرة لبيت من البيوت.. ثم الحديث عن سياسة البلد من وجهة نظر عم الحاج منعم. ووجهة النظر تلك

تمثل مفهومية معظم أولاد البلد لما تأتى به الدولة من «معجزات» ساعات تكون غير مفهومة، وفوق كل ذلك، الحاج منعم بنفسه.. يقف على رجليه ساعتين على الأقل، يحنتف فى الوجه، بعد حلاقة الذقن، أو يدرج فى تدريجة القفا .. شعرة.. شعرة .. وكل هذا مقابل .. ثلاثة جنيهات للشعر .. وجنيه للذقن !

أما الصالون الانفتاحى . وحكى الأستاذ عبد الصمد ما جرى له فيه «استقبلنى البروفسيور شاهين فى شئ من الجمود والحديث الهامس.. اضطررت معه أن أجعل حديثى معه هامسا .. لما سألنى: هل جئت للزيارة حتى أجلسك بالداخل.. فى مكان استراحتى؟!

قلت له : لا .. أنا نفسى أحلق شعرى عندك!

رفع ذقنه لأحدهم .. فجهز المقعد طبقا لمقاسى .. وظل شاهين لاطعا ابتسامة على شفتيه حتى سلمنى لمساعديه ثم اختفى ..

مررت بكافة الاجراءات التمهيدية.. ثم جاء البروفيسير شاهين، ورفع ذراعيه فأدخلوا المعطف الابيض على القميص الفاسكو المبرقش بالتصاوير وكأنه مصنوع من ورق المجلات والصحف المصورة .. وأخذ أحدهم يغلق له أزرار المعطف.. وكأنه قد عقم يديه فلا يريد أن يلمس شيئا .. والشبان الثلاثة أحاطوا بى.. لا بد وأنهم من خريجى نفس المعهد فقد كانوا يغالون فى تعقيد السهل .. وتربيط المعتاد .. وعدة الشغل .. المقص والمشط وماكينة الحلاقة.. على مبعدة نصف ذراع من البروفسيور شاهين . فلا يكلف نفسه ويلتقطها .. أنه يتوقف عن العمل .. ويهمس «مشط .. ماكينة .. مقص..»

فيسارع أحدهم ويظهر من تحت كوعه ليناوله المطلوب. بينما آخر يتقدم ويضرب الشعر الطائر على ـ الفوطة التى تعمد إلباسها من رقبتى بعد أن فضها من كيس نايلون مزقت مقدمته أمامى ليوهمنى أن هذه الفوطة تستعمل لأول مرة. وكأنه سيستخدمها فى تلقى الشعر عليها، ثم يلقى بها فى صندوق القمامة كالمناديل الورقية.. وقد استخدم فى لصق رقبة الفوطة عند رقبتى بكمية من القطن، وشريط من البلاستر اللاصق. كنت أريد أن أسمع شيئا من «الأسطى شاهين» يحدثنى ـ كما هى عادة الحلاقين .. وفمه قريب من أذنى.. عن نجاحاته .. وعن متاعبه .. وليس هناك نجاحات بدون متاعب.. يحدثنى عن حياته الجديدة.. ومشاكلها بحكم إننا أصدقاء. ولسنا زملاء عمل فقط ..

لكن البروفسيور شاهين كان يأخذ الأمر فى شئ من الجدية والاهتمام .. والمسألة لا تستحق كل هذا .. كدت أنفجر بالضحك الذى تجمع فى صدرى وصار يخربشنى ليخرج.

قام «البروف» ـ كما يناديه المساعدان ـ بالعمل الأساسى الذى لم يستغرق عشر دقائق وترك ـ رأسى ـ للمساعدين ينهون ـ الحالة ـ على خير ما يرام .. واختفى ..

وإذا مـــا نظرت إلى المرايا التى تعكس رأسى من كـــافـــة الاتجاهات. وجدت أن ما تم فى شعر رأسى .. أقل كثيرا مما يفعله الحاج منعم وأولاده إبراهيم ومنجى.

ومع أننى فى العادة.. استحم عقب الحلاقة لأتخلص من الفانلة التى تحتفظ ببعض الشعيرات التى تشكنى لكى أتوقف عن

«الهـرش» فـإننـى لم أمـانـع من أن يدير المختص بغسـيل الرؤس (الكرسى) ويلعب فى أزراره حتى أتمدد ويصير رأسى فى الجوض .. ويبدأ عمله برشاش الماء الدافئ والصابون السائل.. وأخذ يدلك لى رأسى برغاوى الصابون .. ومع أن رغاوى الصابون لم تصل إلى عينى .. إلا إننى بحكم عادات الطفولة ـ عندما كانت أمى تغسل لى رأسى بصابونة الدبة أو الدمنو الغشيمة ـ شعرت بأن عيناى يحرقانى وتحملت، حتى فرغ من حمام الشامبو .. ثم تقدم الآخر ـ بالتبادل ـ لتهيئتى لمغادرة المقعد الذى خال لى أن فى إمكانه أن يتحول إلى سيارة أو طيارة.. وبه كثير من الأذرع والإمكانيات التى توسعه، وتعليه، وتفرده وتثنيه وتحركه دائريا ..

ولما وقفت على قدمى .. لم يقل لى أحدهم «نعيما»..

وكأن ـ نعيما ـ هذه التى نرد عليها «الله ينعم عليك» صارت من التراث القديم غير الجدير بالتناول..

تلفت حولى أبحث عن «البروف» .. لا أخفى عليك أننى شعرت بما يشعر به الفأر عندما تنغلق عليه المصيدة ..!

.. لقد هرب ابن عبد المولى بركات.. وسيتركنى لصبيانه يفسرون لى بنود الفاتورة.. ويحصلون على نصف راتبى الشهرى ..

هندمت نفسى، فإذا بالفتاة الجميلة الوديعة .. تتقدم منى وفى يديها طبق أبيض صغير، فوقه مفرش ذهبى، تتوسده فاتورة أنيقة..!

فهمت من ابتسامتها الخلابة، وتسبيلة عينيها .. أننى مطالب الآن بدفع «الفيزيتة».

أحدا غيرى يحرج.. ويدفع .. ولكن العلاقة الوطيدة التى بينى وبين الأسطى شاهين .. تخطت حاجز الزمالة إلى الصداقة .. كان لابد من الإصرار على استغلالها إلى أقصى حد ممكن ..!

سألت الفتاة:

ـ هل تقربين للأسطى شاهين يا أمورة؟

ـ قالت الفتاة:

ـ قصدك البروفسيور؟

ـ قلت : نعم هو .. البرفسيور شاهين عبد المولى.

اتسعت عيناها دهشة .. وهى تغمغم ـ أبد المولى .. أبد المولى .. «وقالت:

ـ أنا أعمل «كاشيير» فى الصالون .. وأتدرب فى جناح الحريم.. على الميديكير!

قلت لها: حسنا .. أزعقى على الأسطى شاهين وقولى له .. الأستاذ عبد الصمد.. يريد أن يسلم عليك!

ولكن الفتاة ظلت تمد يدها بالطبق الذى تتوسده الفاتورة .. وتهزه قليلا .. ثم تواصل الحملقة فى عينى «تعنى بها .. ادفع الفلوس المطلوبة .. فالفلوس المطلوبة ليست لها علاقة بما كلفتنى به من مهام..»..

وأخذت تبتسم فى وجهى ولا تتحرك ..

وابتسمت فى وجهها .. فقالت:

ـ الأجرة من فضلك؟

ـ سألتها: كم تطلبين يا أمورة..؟

فأخذت تعدد بصوت خافت إلى كالصوت المسجل :

- عشرين قص شعر - ستة ونصف حمام شعر - ستة ونصف حلاقة ذقن - ثلاثة ونصف توضيب وجه رجالى .. ثلاث جنيهات تدليك رأس رجالى.. وإضافة عشرة بالمائة «تيبس».. الإجمالى ثلاثة وأربعون جنيهًا ونصف .. وضحكت فى وجهها ضحكة متوترة .. وقلت :

- أزعقى حالا على الأسطى شاهين ..

وإذا ما تلكأت عدت أكرر بصوت أعلى وفيما يبدو أن الأسطى شاهين كان يرقب هذه «الزنقة» التى تسببها الرقة والجمال.. لأمثالى من الخشنين غير المهذبين. ولعله كان يتوقع هذه النهاية فقد ظهر قادما من استراحته بالداخل.. وابتسامة عريضة تملأ وجهه .. صرف الفتاة - بأن وقع لها على الفاتورة .. وصحبنى من ذراعى إلى الداخل .. وعندما تخطى الفاصل بين استراحته - والمحل - احتضننى مرحبا .. يكاد يحملنى عن الأرض .. ثم أنزلنى .. وأجلسنى أمامه على الفوتيه يقدم لى .. علبة البونبونى .. والسجائر .. ويشعلها لى بالولاعة التمثال .. لتنين فمه يبخ نارًا ..

ثم قال : يا أستاذ عبد الصمد .. لعلك شاهدتنى فى التليفزيون .. الدعايا التى قدمتنى لمجتمع ميامى .. قدمتنى على أساس أننى أحد ثلاثة حلاقين عالميين -.إعلان مدفوع طبعًا - وعليه سيسارع نجوم السياسة. والفن . وكرة القدم، بقص شعورهم عندى .. وشهادتى الباريسية والأمريكية واللندنية.. معلقة فى براويز .. وحضرتك تطلب من الكاشير أن تزعق لك: «الأسطى شاهين عبد

المولى» أنا لم أعد الأسطى شاهين عبد المولى.. لقد صرت «البروفسيور شاهين أوف سان فرانسيسكو».

وعندما وجدنى أغمغم باسم الشهيد عبد المولى بركات .. وأترحم عليه ـ هدأ .. ثم ضرب ركبتى وقال:

ـ بالدعاية .. والهمبكة .. وكما رأيت الفيزيتة لا تقل عن أربعين جنيها وعندى زبائن تدفع المائة إذا ما نظف أضافره وقلمها..!

وقلت له: أنا كان نفسى أحلق فى صالون انفتاحى، لكنى لم أفكر بأننى سأدفع قيمة الفيزيتة.. إذا أردت أن تقبل ما يحصل عليه الحاج منعم فأنا على أتم استعداد لدفع الثلاثة جنيهات لك.. ثلاثة جنيهات للشعر. وجنيه للذقن زى بعضه. أخذ يضحك وقال:

ـ أنصحك بأن ترفع أجرة الحاج منعم إلى خمسة جنيهات صحيحة.. فنحن نتقاضى مثلها عشر مرات.. وأقسم لك.. أن الحاج منعم .. يشتغل بزمة..!

وانفجر ضاحكا ..!

وبعد أن فتح لى زجاجة عصير من ثلاجته التى تجاور .. سرير الراحة تهيأت للانصراف، طلب منى فى رجاء ـ أن يظل صالونه الانفتاحى بعيدا عن زيارات زملائه العمال غير «الانفتاحيين» رجاء..

وضغط على ذراعى وهو يخفض من صوته ويميل على أذنى قائلا: «همبكة الانفتاح والشغل الأمريكانى.. لن تنطلى عليهم ..!!»

فرفعت أصبع يدى أشير به إلى «عينى».

ثم أخذت أمسد قفاى ..!!

الكاتب وإصداراته:

- عبد الفتاح مرسى «عبد الفتاح أحمد مرسى».

- ليسانس آداب من جامعة الإسكندرية - دبلوم عام من كلية التربية «جامعة الاسكندرية».

- عضو عامل باتحاد كتاب مصر (١٣٦٦).

- يعمل فى مجال الشركات الصناعية والتجارية بالقطاع العام (مدير إداريًا).

- يقيم بالاسكندرية – ت: ٥٤٨٨١٥٢ – سيدى بشر.

- كتب صدرت للمؤلف:

- رواية « على حافة النهار» – سنة ١٩٩٣ - الثقافة الجديدة.

- رواية «الدحديرة» - سنة ١٩٩٤ - على نفقة المؤلف.

- رواية «المحسوس والملموس» - سنة ١٩٩٥ - المجلس الأعلى للثقافة.

- رواية «المتطوع والموصول» - سنة ١٩٩٦ - كتاب فاروس.

- مجموعة قصص «شهوة الموقف المتحرك» - سنة ١٩٩٧ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.

- دراسة «الفن فى موكب الوعى» - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.

- رواية «المسخوط من سيرة على بلوط» - سنة ١٩٩٨ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.

- رواية «الليل وجبروته» - سنة ١٩٩٩ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.

- رواية «الإبحار فى الرمال» - سنة ٢٠٠٠ - دار الوفاء لدنيا الطباعة.

- مجموعة قصص «قبلات محطات السفر» إصدارات هيئة الفنون والآداب - بالإسكندرية.

- فى مجال القصة القصيرة - فاز بالمركز الأول والميدالية الذهبية فى مارثون القصة القصيرة على مستوى الجمهورية - المجلس الأعلى للشباب والرياضة - إبداعات القادة عام ١٩٩٦م.

- فاز بالمركز الثانى برواية - «غدًا نأكل التفاح» - نادى القصة بالقاهرة - عام ٢٠٠٠/٢٠٠١م. وصدرت الرواية بكتابات جديدة.

- فاز بالمركز الثانى بقصة «صرصار جاف يتحرك» عام ٢٠٠١/٢٠٠٢م. وطبعت القصة بكتاب الفائزين - سلسلة الكتاب الفضى.

- فاز بالمركز الأول برواية «أكثر من عمر» نادى القصة بالقاهرة - عام ٢٠٠١/ ٢٠٠٢م. وصدرت مطبوعة ضمن سلسلة الكتاب الفضى ٢٠٠٢م.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢٠١ / ٢٠٠٣

I. S. B. N 977 - 01 - 8543 - 4